جامعة دمشق

كلية الآداب الرابعة

قسم اللغة العربية

السنة الثانية

مقرّر مادة أدب صدر الإسلام ف١

(المحاضرات)

د. محمد دخل الله

Damascus University

العام الدّراسي: ٢٠٢٣ - ٢٠٢٤

المحاضرة الأولى:

حال الأدب في عصر صدر الإسلام

أولاً ـ مدخل إلى فهم الأدب الإسلامي:

توضيحاً لفهم هذا المقرر الممتع، تجدر الإشارة قبل كل شيء إلى الإجابة عن تساؤلين:

- ماذا تعني كلمة أدب في هذا العصر؛ ولا سيما إذا ما علمنا أن الرسالة السماوية السامية أصابت تأثيراتها كل ما في الحياة ومناحيها؟ في الجواب عن هذا نقول: إن معنى هذه الكلمة انحرف قليلاً عما كان عليه في الجاهلية من الداعي إلى الطعام، لتأخذ في هذا العصر معنىً ودلالة مغايرين تماماً، مستمدين من تأثرات القرآن الكريم وتعاليمه السامية، لتنتقل من معنى حسي إلى معنى ذهني دالة بهذا على التهذيب الخُلُقيّ، فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»، لتكون بهذا الشكل شأنها شأن بقية الكلمات المعنوية التي تُستخدَم أولاً في معنى حسي، ثم تخرج منه إلى آخر ذهني مجازي، هذا، وستستمر هذه الكلمة في تطورها الدلالي عبر العصور انتقالاً إلى العصر الأموي فالعباسي فيومنا هذا، ذلك عبر تطور حياة الأمة وانتقالها من طور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة، حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم وهو؛ (الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين سواء أكان شعراً أم نثراً).
- ما حقيقة عبارة (صدر الإسلام)؛ بوصفها عبارة ملازمة إلى حد كبير لهذا العصر؟ وفي الجواب عن هذا نقول أيضاً: إن كلمة صدر هي عبارة عن مصطلح وضع هكذا، وبدأ تداوله بين الباحثين والدارسين إشارة إلى الحقبة التاريخية الممتدة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٦١٠م، وحتى وفاة سيدنا علي كرم الله وجهه سنة ٤٠ه ٦٦١ م، ولعل الذي وضعها أول مرة كان اعتبر أن حياة الإنسان قد بدأت من جديد بهذه البعثة، مدخلها حقبة عطرة هي صدر الحضارة الإنسانية، فشاعت وانتشرت بهذا الشكل حتى صارت ملازمة لهذا العصر، لا

تكاد تبارحه في كتب الباحثين والدارسين وعلى ألسنتهم، ولا سيما فيما يتعلّق بالأدب المنتَج في هذه الفترة على وجه الخصوص.

من هذا الفهم وهذا التوضيح المقتضب، يمكن لنا أن نقف عند أمرين يتعلّقان بهذا العصر ونتاجه الفكري، قبل البحث في ثنايا المقرر، وهما:

- مفهوم الأدب في هذا العصر، هو النتاج الفكري من شعر ونثر غذته مصادر ثلاثة؛ هي الشعر الجاهلي، القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف.
- حدود هذا الأدب، إن حدود هذا العصر الأدبي، المكانية؛ هي الجزيرة العربية ببواديها ومدنها كمكة والمدينة، وأما حدوده الزمنية؛ فهي حقبة خمسين عاماً وأزيد بقليل، تمتد من البعثة النبوية الشريفة، أي منذ نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ٦١٠م، وحتى وفاة سيدنا علي سنة ٤٠هـ٦٦١ م، العام الذي سمي بعام الجماعة، وقد تخلل هذه الحقيبة التاريخية على قصرها أحداث جسام غيرت وجه الجزيرة وما حولها، بل غيرت مجرى التاريخ كلِّه، وفي الوقت نفسه سرعان ما كانت ألقت بظلالها على النتاج الفكري، الذي تنتجه القريحة العربية آنذاك، ومن ذلك؛ هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٣م، الصدام العسكري بين المسلمين والمشركين، حروب الردة، الفتوح الإسلامية وانتصارات المسلمين على الفرس والروم، انتشار الإسلام أخيراً في الجزيرة وغيرها.

في ظلال هذه الأحداث الشائكة والشائقة، يمكن أن نرسم الواقع الأدبي الذي انقسم بين مؤيد للدعوة الإسلامية، ومعارض لها، وفي الوقت نفسه سيقف الباحثون موقفين بين من قال بازدهار هذا الأدب كشوقي ضيف، ومن قال بركوده واضمحلاله كابن خلدون.

ثانياً ـ واقع العرب في الجاهلية:

كان المجتمع الجاهلي مجتمعاً قَبلياً تحكمه مجموعة من القيم الاجتماعية، نمت في ظلال الفوضى، من مثل؛ روح الطيش والنزق، والنزعة الفردية، والإسراف في كل شيء، أو غلو البعض في تقدير الأمور، فكان واحدهم يفرط في الكرم إلى حد التبذير، ويغالي في الشجاعة إلى حد إلقاء النفس إلى التهلكة، بالإضافة إلى هذا سيطرت الوثنية على عقولهم وعلى الحياة سيطرةً لم تسمح بقيام مثال أعلى مطلوب يكون قدوة، في حين بدأت هذه السيطرة تضعف بظهور فرق وجماعات من الحنفاء على دين نبينا إبراهيم عليه السلام، تنقد الشك والوثنية،

كما ظهر دعاة من النصـــارى، وانتشـــرت الديانة اليهودية على نحو محدود، ومن الصـــور الاجتماعية أيضـــاً؛ عززت مكة مكانتها بسـيطرتها على الطرق التجارية، وقد تكوَّن شـعور عام يحترم قريشـــاً ويعلي شـــأنها، فهي التي كانت تشـــرف على البيت الحرام، وعرف عن سـاداتها مكارم الأخلاق، وفي الوقت نفسـه؛ نمت لهجتها وازدهرت بفضـل الأسـواق الأدبية التي كانت تقام على مقربة من مكة، ما أســهم في اتســاع نفوذ هذه اللهجة وســيطرتها على الحياة الأدبية التي كان الشعر أحد أبرز مظاهرها.

إن مجمل المظاهر السابقة تشير إلى أن العرب كانوا يعيشون إرهاصات نهضة حقيقية، وتُنبئ عن أنهم على أبواب يقظة عقلية وروحية، وهم في أوج نهضــة أدبية؛ ربما الأمر الذي تتجلى فيه حكمة الله عز وجل بأن أوحى برسالة السماء إلى الأرض في هذه البقعة الجغرافية وفي ذلك الزمان.

ثالثاً ـ أثر الإسلام في المجتمع:

تعد رسالة السماء السامية إلى الأرض حدثاً إنسانياً جللاً، غيَّر معالم الحياة وقلب مفاهيمها رأســاً على عقب، بدءاً من الإنســان، ولعل أول مظاهر هذا التغيير تبدو في الأبعاد الروحية والإيمانية، ثم بتكريم الله عز وجل للإنسـان، إذ حمَّلهُ رسـالة الحياة ومنحه عقلاً يفكر ويدرك ما حوله من خير وشر، وقلباً بصيراً يبصر به سبل الرشاد، كما وتجلَّت سنة الله في خلقه من خلال قرآنه الكريم الذي أراده أن يكون دستور حياة، ينظِّم كلَّ كبيرة وصـغيرة فيها، بدءاً من الحياة الأسـرية والفرد عمادها، وانتهاءً بالعلاقات الدولية بين الأمم والشـعوب مختلفة الألوان واللغات والأشـكال، ومن مظاهر هذا التحول؛ دعوة الإسـلام إلى الوسـطية والاعتدال في كلّ شــيء، والبعد عن التطرّف، ودعوته إلى المســاواة والعدالة الاجتماعية ودعوته إلى الحرّية، حرية اختيار الإنسـان وارتقائه بمفاهيمه، بالإضـافة إلى هذا كلّه؛ فمجيء الإسـلام عمل على؛ أن مَحا العادات الســيئة وعلَّمَ مكارم الأخلاق، أعطى المرأة كلّ حقوقها ومنع وأد البنات، أصبح الدستور هو القرآن بينما كان العمل بعادات قبلية سيئة، وأما أثره -أي أثر الإسلام- في العرب على وجه الخصـوص، فيمكن إجماله؛ أن جعلهم أمة واحدة بعد التفرّق والتقاتل بينهم، جمعهم تحت لواء الإســـلام، خلَّد لغتهم فأنزل القرآن الكريم بها، أثَّر في أدبهم ووحَّد لهجاتهم المتعددة.

بعيداً عن هذا وذاك فتأثيرات الإسلام في الأدب شعراً ونثراً ستكون فاعلة جداً إيجابياً وسلبياً، ذلك أمام هذه القولبة الشاملة لمفاهيم الحياة، وعليه فستكون المناشط الأدبية والعلمية أحد مظاهر نهضة الإسلام الشاملة.

رابعاً ـ أثر الإسلام في اللغة العربية وآدابها:

من أثر الإسلام الواضح في هذا؛ وحَّد لهجات العرب في لهجة قريش، فحققت سيادتها الكاملة وتحولت إلى لهجة عامة تسري على ألسنة سائر القبائل، حفظ القرآن الكريم اللغة العربية وزادها بهاءً بيدَ أنه صار مؤثراً في النفوس، على الرغم من كونه جاء إعجازاً تحدَّى الفصاحة العربية، أضاف إلى اللغة ألفاظاً جديدة لم تكن معروفة من قبل، من مثل؛ المؤمن، الكافر، الصلاة، النفاق، وهذَّب ألفاظاً أخرى وحشية وأبعدها عن الغرابة والخشونة، كان سبباً في نشأة بعض العلوم اللغوية والشرعية وازدهارها كالنحو والصرف والتفسير والاشتقاق والمعاني والبيان والقراءات وأصول التوحيد، ساعد على انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة كبلاد فارس والروم والإسبان، الأمر الذي دفع بعض سكان هاتيك البلاد للإقبال على تعلُّم العربية إذا ما أرادوا أن يعتنقوا الإسلام أو رغبة بتعلم علومها، كشفَ عن أسرار اللغة وفصاحتها ما دفع لجمع الكثير من النصوص الأدبية واللغوية للاستعانة على تفسير القرآن وفهمه، ساهم في ارتقاء أساليب الأدباء عن طريق محاكاة الأسلوب القرآني، وأخيراً فإن مجمل مثل هذه الإثراءات في علوم اللغة والأدب، ستسهم فيما بعد بالنهضة العربية التي قامت بيد علماء المسلمين.

خامساً – ما يمكن أن يترتب على الأدب والمجتمع بمجيء الإسلام:

١- قام الإسلام بدور المعلّم الحكيم الواعي، الحصيف الذي ما كان له أن يسكت على الخطأ ولم يقبل إلا بدوام المثابرة.

٢- بين الجاهلية والإسلام فوارق واضحة في المجتمع، قوّمها الإسلام بمجيئه وصحّح مساراتها، وقد جعله في قنوات نظيفة تجري بها، إذ لا يوجد في ظلاله حرمان البتّة، بل يوجد تنظيم وتقويم اعوجاج، فعلى سبيل المثال؛ حرّم الإسلام الخمر لكنّه سمح بعشرات ومئات السوائل بديلاً نافعاً مفيداً، وبمعنى أدقّ؛ إنّ القيمة بقيت بوصفها قيمة بذاتها، كالكرم على مثلاً، في حين الذي تغيّر النّظرة أو المعيا ر إلى تلك القيمة بين المباهاة والمفاخرة أو الإنفاق في سبيل الله.

٣- وعلى صعيد الأدب (شعر – نثر)، كان للإسلام تأثيرات واضحة إيجابية وسلبية نتيجة عدّ عوامل أبرزها القرآن الكريم.

٤- وعلى صعيد الحياة الثقافية أنجب الإسلام من غير العرب، اشتغلوا تحت رايته، نتاجهم يُحسب لصالح الحضارة الإسلامية، من مثل؛ البخاري، سيباويه، وسواهما.

قبل أن ننهي محاضرتنا هذه تجدر الإشارة إلى أمرين مهمَّين:

أ- ثمّة محاور مهمّة لا بد من الاهتمام بها اهتماماً بالغاً لفهم المقرّر والقدرة على المناقشة فيه، وهي:

١- موقف الإسلام من الأدب (شعر – نثر).

٢- أثر الإسلام في الأدب (شعر – نثر).

٣- حول فنّية الشعر الإسلامي.

٤- التغيير الذي طرأ على الأغراض الشّعريّة بمجيء الإسلام

ب – سأزوّدكم بمجموعة من الكتب التي تتعلق بنتاج هذا العصر لمن أحب أن يستزيد في معلوماته:

١- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل.

٢- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف.

٣- تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، د. محمد حسن درويش.

٤- القواعد المعرفية في أدب صدر الإسلام، د. سالم المعاوش.

٥- جماليات التشكيل الفني، الشعر الإسلامي نموذجاً، د. سمر ديوب.

٦- الأدب في موكب الحضارة، مصطفى الشّكعة.

بالإضافة إلى كتابِكم المقرّر (الأدب في صدر الإسلام الصادر عن جامعة دمشق).

انتهت المحاضرة الأولى

المحاضرة الثانية:

الإسلام والشّعر

أولاً – كيف كانت مكانة الشِّعر والشّاعر قُبَيل مجيء الإسلام؟

كان الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء، كما يقول أبو عمرو بن العلاء، والشعر كان يليق بالنبوة فسيدنا داود عليه السلام كان شاعراً، وثـمّة أخبار تدل على أن العرب كانوا يقدسون الشعر وله مكانة مرموقة في حياتهم، إذ كانوا ينشدونه على موتاهم، ومما يؤكد هذه القدسية أيضاً أنهم في بعض الأحيان لا ينشدونه إلّا وهم على وضوء، كما فعلوا مع قصيدة المتلمس الميمية، وكما يُذكَر عن الملك عمرو بن هند أنه أمر الحارث بن حِلّزة ألّا ينشد قصيدته الهمزية إلّا متوضئاً، في حين لم تبقَ لهذه القدسية مكانتها وسينحرف الشعر عن مساره وينحدر عن رتبته ولا سيما عند مخالطة الحضر والتكسب به.

ولعلّ الأمر في قدسية الشعر ومكانته ترجع إلى:

١- صفاء القريحة ونقاء البيئة أنتجا شيئاً يدعو إلى المنافسة والتّباهي بين العرب.

٢- القبيلة الجاهلية كانت سيّدة المجتمع آنذاك، الأمر الذي استدعى ما يخلّد أمجاداً ومآثراً ومفاخراً بالمدح والفخر والرثاء، وحتّى بالدّفاع عن عرض القبيلة هجاءً وقدحاً بالأنساب، وتغنّياً بالمجد والرّفعة تجاه القبائل الأخرى، ليتبدّى الشّعر بهذا الشكل بحقّ؛ (ديوان العرب).

ثانياً ـ موقف الإسلام من الشعر:

في ظلال الإسلام؛ يمكن أن نقرأ الواقع الجديد بين ما هو كائن:(الشعر ومكانته عند العرب) وما سيكون: (الإسلام والقرآن الكريم) فالصورة النهائية للمشهد؛ هي حبّ العرب للشعر ومحاربة الإسلام للقريحة العربية المنتجة له، والخلاصة؛ فأمام عظمة الشعر في نفوس العرب ولا سيما في بداية الدعوة الإسلامية، وقف الإسلام موقفاً (عقلانيّاً منطقياً بكل تسامح) يتمثل في قضيتين، وهما؛ نفي الشاعرية عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونفي أن يكون القرآن الكريم شعراً، وقد أورد القرآن الكريم مجموعة من الآيات في هذا وهي:

- {والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء/٢٢٤-٢٢٧].

- {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس /٦٩].

- {بل قالوا أضـــغاث أحلام بل افتراه بل هو شـــاعر فليأتنا بآية كما أرســـل الأولون} [الأنبياء/٥].

- {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شـــاعر نتربص به ريب المنون} [الطور/٢٩ و٣٠].

- {ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشـــاعر مجنون، بل جاء بالحق وصـــدق المرســـلين} [الصافات/٣٦-٣٧].

- {إنه لقول رســـول كريم وما هو بقول شـــاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين} [الحاقة/٤٠-٤٣].

يترتب على هذه الآيات وسواها أمور توضح موقف الإسلام من الشعر أكثر، من ذلك:

١- من الخطأ القاتل أن يُفهَم أنَّ الإسـلام قد وقف من الشـعراء موقفاً معادياً أضـعف بذلك هذا الفن، فالإسـلام أدرك خطورة الشـعر ورسـالته ومكانته لدى العرب، لذلك كرَّم الشـعراء وأعطاهم سورة من سور القرآن (سورة الشعراء) كما يرى د. شكري فيصل.

٢- ينفي القرآن الكريم مسـألة مهمة؛ هي أنَّ الله تعالى لم يُعلِّم نبيه الشـعر وعلومه، العلوم التي كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية، الأمر الذي لا يليق بالأنبياء ولا ســـيما بعد التكسـب به، يقول الله تعالى: {لا أسـألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى}، وفي الوقت نفسـه ينفي القرآن التُّهم التي وجِّهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أنَّ العرب اتَّهموه مرّة بأنه شاعر ومرّة بأنه كاهن أو ساحر، أو كلامه كالحلم، لا يجمعه جامع ولا يربطه رابط، واتهموه أيضـاً بأنه مجنون يأتي بأشـياء لا تعرفها الناس، وقالوا فيه أيضـاً أن كلامه مُختَلق فهو غير معروف لديهم، ولعل في هذا اضـــطراب وحيرة وانعدام القوة في المواجهة كما يرى د. عبد الكريم حسين.

٣- إنَّ الإســـلام لم يحرِّم الشـــعر ولم يقف في وجهه، فهو عارض ضـــرباً منه بعينه وأيَّد ضرباً آخر، لأنه -أي الشعر- هو وجه من وجوه النشاط الإنساني في نظر الإسلام، مثله مثل الحب والتجارة والقتال، وهو لا يعارض مثل هذه الوجوه إلّا حين تتعارض مع مبادئه في اتجاهاتها، وهو لا يمنع الدافع الجمالي من التطور ولا يضـعفه، وبعبارة أدق؛ الإسـلام لم يقلِّم أظفار الشـــعراء ولم يقف في طريق الشـــعر الذي كان مفخرة من مفاخر العرب، وإنما قلَّم

أظفار الشر في المجتمع العربي ومعها أظفار الشعر الذي يدور حول الشر وكأنه بهذا أسس نظرة جديدة إليه – أي إلى الشعر – مع المحافظة على المثل الاجتماعية.

٤- يسّر الإسلام سبل القول أمام الشعراء، فأعاد صك الموضوعات والقيم القديمة، وأمدَّ الشعر بموضوعات جديدة، إذ فتح أبواباً للقول لا عهد لهم بها استحدثتها ظروف الدعوة والحياة معاً، كرثاء الشّهداء وشعر الفتوح وسواهما.

٥- ينظر الإسلام إلى الشعر بوصفه وجها من وجوه النشاط البشري، فما كان منها مقروناً بالحق أو الخير فهو حسن، وما كان منها مخالفاً ومفارقاً لهذا الحق فهو قبيح لا خير فيه، فثمّة شعراء يستخدمون شعرهم في الغواية وشعراء آخرون يوظفون شعرهم في الهداية، كحسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة.

ثالثاً ـ موقف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من الشعر:

مرّ موقف الرسول الكريم من الشعر بثلاث مراحل واضحة، وكان صلى الله عليه وسلم خلالها قد مدح الشّعر فقال: «إنَّ من البيان لسحراً وإنَّ من الشعر لحكمة – أو لحُكماً-»، فالحكمة هي الدواء ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة، والحُكم هو السلطان أي أن الشعر يسيطر علينا في بعض المواقف ويؤثر في مشاعرنا وعقولنا إلى حدّ البكاء، وكان صلى الله عليه وسلم قد قسّم الشعر إلى طائفتين فقال: «إنما الشعر كلام مؤلَّف فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه»، فهو صلى الله عليه وسلم كان قد سمع الشعر وأنشده وحكم عليه، وفي بعض المواقف أثنى على الشعراء في زمانه وفي غير زمانه وأثنى على شعرهم، وفي بعضها الآخر دعا للشعراء كما أنه نهى عن الشعر وقوله في مواقف معينة، إذ راعى في هذا كله مكانة الشعر في نفوس قومه عندما رآهم يعلون من شأنه ويمجدون الشعراء، فكان حيال ذلك لا بد منه، من أن يتصرف بهذه القضية بحكمة وتجرد، فتمثل موقفه في:

١ ـ مرحلة الدعوة إلى التوقف عن قول الشعر: كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر إلى التوقف عن قول الشعر، ذلك بسبب المعاني التي يتمتع بها الشعر الجاهلي، وبسبب حرصه صلى الله عليه وسلم ألّا يصد الشعر الناس عن حفظ القرآن وفهمه والعمل به، فقد قال: «احثوا في وجوه المدَّاحين التراب»، وقال: «لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً» وفي رواية: «شعراً هُجيت به»، فالملاحظ في هذا أن الرسول صلى

الله عليه وسلم لم ينهَ عن رواية الشعر، وإنما ينهى عن الإسراف في روايته، وتحديداً ذلك الشعر الذي هجي به، فإن امتلأ الجوف شعراً فلن يبقَ مكان لسواه من تعاليم الإسلام، وأما عن موضوعات الشعر في الجاهلية؛ فإن مثل تلك الموضوعات لا تتناسب مع الأخلاق والمبادئ الإسلامية، فالمدح كان بغرض التكسب والأخذ من جيوب الآخرين، ما يدفع الشاعر إلى الكذب والمغالاة في مدحه، وأحياناً ما يضطر إلى إراقة ماء وجهه في سبيل ذلك، وفي أحيان أخرى يضطر إلى هجاء آخرين ما يثير العصبية والبغضاء والفرقة، والفخر كان يتناول رفع قبيلة دون أخرى وتعظيم شأنها بمفاخرتها على غيرها، والتنقيص من شأن قبائل أخرى، وكذلك الرثاء على الرغم من كونه أصدق الشعر، ففيه مخالفة لمبادئ الإسلام حيث اعتقادهم بأن لا حياة بعد الموت، وغير ذلك من الأفكار المخالفة للشريعة وتعاليم الدين الإسلامي والتي كانوا يتناولونها في أشعارهم، الأمر الذي لم يكن يناسب الواقع الجديد بتعاليمه ورسالته السمحاء.

في حين إن نظرة الشعراء أنفسهم أخذت تتبدل شيئاً فشيئاً إزاء هذا، فالخنساء على سبيل المثال التي بكت أخاها صخرًا في الجاهلية بكاءً مراً ظلت تبكيه في الإسلام، ولما سئلت عن ذلك قالت: كنت أبكيه لموته واليوم أبكيه لكفره، وهي نفسها لما استشهد أبناؤها الأربعة في القادسية لم تبكهم بل قالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم وأسأله أن يجمعني بهم في مقر رحمته.

٢ ـ *مرحلة الاستماع إلى الشعر والحكم عليه:* استمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشعر وبدأ يدلي بأحكامه وهو يطبق نظرة الإسلام تطبيقاً صارماً، ولعل هذا الأمر كان بدأ عندما بدأت المعاني الإسلامية تستقر في النفوس، وأيقن صلى الله عليه وسلم أن لا خوف من هذا على مبادئ الدعوة، وهنا؛ نجده يمدح بعضه ويثني على قائله كما فعل مع حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وقد ذم بعضه ومنع روايته ويذم أصحابه ويهدر دمهم كما فعل مع كعب بن زهير، وكذلك امتدت أحكامه إلى الشعراء الجاهليين أيضاً فأثنى على عنترة على سبيل المثال ومدح بعض أبيات لطَرفة بن العبد، وأما عن استماعه صلى الله عليه وسلم إلى الشعر، فمرّة طلب من أحد أصحابه أن يسمعه لأمية بن أبي الصلت وما زال يسمعه حتى بلغ مئة بيت، فقال الرسول الكريم: «كاد ليسلم في أشعاره»، ومرة استمع إلى شعر لعبد الله بن رواحة في مكة عندما دخلها لعمرة القضاء وعبد الله يمشي بين يديه ويقول:

خَلّوا بني الكفار عن سبيلهِ اليومَ نَضربكم على تنزيلهِ

ضرباً يُزيلُ الهَامَ عن مَقِيلهِ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلهِ

فقيل له: يا بن رواحة بين يدي الرسول وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له الرسول: «خلِّ عنه فهي أسرع فيهم من رمي النبل».

فخلاصة الأمر في أحكامه صلى الله عليه وسلم تجاه الشعر؛ كانت تصدر عن موقف ثابت لا يتغير وهو الموقف الأخلاقي، فما وافق القيم الإسلامية كان شعراً يستحق صاحبه الثناء وما خالفها كان شعراً رديئاً وصاحبه بالذم أولى.

٣- *مرحلة توظيف الشعر*: كانت المعركة بين المسلمين والمشركين بالسيف واللسان، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى أصحابه أن يردوا بالشعر، في حين أخذ مشركو مكة هجاء النبي وأصحابه، وهجوا الأنصار، فجاء الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكونه ذلك ويطلبون منه أن يأذن لهم بالرد، فقال الرسول الكريم: «إن القوم الذين نَصَرُوا الرسول بأسلحتهم أحق أن يَنصُروهُ بألسنتهم»، وخلاصة الأمر في هذا، هي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى المسلمين قد استقرت في أذهانهم وقلوبهم أفكار الإسلام وقيمه عمل على حثهم على نصرة الإسلام بألسنتهم كما ينصرونه بأنفسهم وأموالهم، يقول صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله ولسانه».

رابعاً ـ موقف الشعراء من الإسلام:

انقسم الشعراء إزاء موقفهم من الدين الإسلامي إلى:

١- فريق يؤيد الدعوة الإسلامية ويدافع عنها، فقد دار مع الإسلام أنّى دار وسار معه أنّى سار، أمثال حسان والنابغة الجعدي، وقد صار مقرهم المدينة بعد الهجرة إليها.

٢- فريق يحارب الدعوة الإسلامية ويقف ضدها، أمثال ضرار بن مرداس، فهؤلاء هم المشركون الذين ناصبوا العداء للإسلام وهجوا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم بعد الهجرة صار مقرهم مكة.

٣- فريق اعتزل قول الشعر أمام عظمة القرآن الكريم وفصاحته، أمثال لبيد بن ربيعة، فهذا الفريق استصغر قيمة الشعر أمام إعجاز القرآن الأدبي والبلاغي، ولم يقل شعراً وإذا ما قال فإنّ شعره يأتي طافحاً بالمعاني الإسلامية الخالصة، ويعبر عن مشاعر متيمة بروح

الإسلام نابعة من أعماق أعماقه، فلبيد نفسه قال بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

هذا لبيد نفسه الذي قال ما قال في جاهليته وكان اسمه يهز المحافل الأدبية والثقافية، فهو واحد من شعراء المعلقات.

خامساً ـ أثر الإسلام في الشعر:

كان للإسلام تأثيرات إيجابية وسلبية في آن واحد في الشعر، سرعان ما بدأت تظهر بوضوح على كل ما يتعلق به من كبيرة وصغيرة، ذلك على الشكل:

١ـ فيما يتعلق بالموضوعات والأغراض: ظهرت أغراض شعرية جديدة لم يعرفها العرب من قبل، واختفت أغراض أخرى أو تأثرت بروح الإسلام، فمن الأغراض الجديدة: شعر الدفاع عن العقيدة، شعر الإشادة بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، شعر الحث على الجهاد، شعر رثاء الشهداء، شعر الفتوح والمغازي وما يحمل من فكرة جديدة فيها فخر بالانتصار على الأعداء.

ومن الأغراض الشعرية التي قلّت وكادت تختفي أو تأثرت بروح الإسلام: شعر الهجاء، شعر الفخر والتعصب القبلي، شعر المدح المتملق، شعر وصف الخمرة ومجالسها، شعر الغزل الصريح.

٢ـ فيما يتعلق بالصور والأخيلة: ظلت الصورة الأدبية مستمدة من البيئة القديمة وظل للبيئة المجال الرحب للخيال بعض الشيء إلّا أن الإسلام أثر في هذا الجانب تأثيراً واضحاً ذلك بفضل الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وغدت الروح الإسلامية تهيمن على روح النص الأدبي وكأنَّ الشاعر يكتب رؤية إسلامية خالصة وبنفس إسلامي أيضاً، فمن ذلك ما تمثل به الرسول الكريم:

ما أنت إلا أصبع دميتي وفي سبيل الله ما لقيتي

وهي أبيات لشاعر قالها، يُفهم منها أن نفسه تطفح بالروح الإيمانية، ولأدل على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم استشهد بها وتمثلها، ومن ذلك أيضاً قول عبد الله بن رواحة:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فالصـــورة في الأبيات وتحديداً البيت الثاني مأخوذة من قوله تعالى: {يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها} ما يدلل على أثر الإسلام الواضح فيها.

٣- فيما يتعلق بالألفاظ والعبارات: تفاوت الشـــعراء في هذا بين البداوة والحضـــارة، فشعراء البادية تميّز شعرهم بالخشونة والقوة ما كان صورة لحياتهم، وشعراء المدن تميّز شعرهم بالرقة والسهولة فكان صورة لحياتهم، وهنا يكفي النظر إلى مدح كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد) للرسول الكريم، ومدح حسان بن ثابت له، ما يعطي مسحة خاصة لكل بيئة بوضوح، فكعب يقول:

إن الرســـول لســـيف يســـتضـــاء به مهنـد من ســـيوف الله مســـلول

وحسان يقول:

نبي يرى مـا لا يرى النـاس حولـه ويتلو كتـاب الله في كـل مســـجد

٤- فيما يتعلق بمنهج القصـــيدة: ظل الشـــعراء متمســـكين بالمنهج الجاهلي إذ افتتحوا قصـائدهم بالغزل حتى مع الرسول صـلى الله عليه وسلم، كما فعل كعب بن زهير في (بانت سعاد)، بالإضافة إلى تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة، في حين بعض الشعراء تركوا هذا المنهج وشرعوا بالغرض مباشرة كما فعل حسان بن ثابت في إشادته بالصحابة.

كانت هذه إشـارات عجلى حول أثر الإسـلام في الشّـعر، الأثر الإيجابي من وجهة نظر بعض الباحثين، وفي الوقت نفسه يراها البعض أنّها آثار سلبيّة، حيث قصور الشعر رتبةً عن شـقيقه الجاهلي، وفيما بعد الأموي، إذ سـيكون لنا وقفة في محاضـرة قادمة مع أبرز العوامل التي أدّت دوراً فاعلاً في هذا، أيضاً؛ إيجابياً وسلبياً.

انتهت المحاضرة الثانية

المحاضرة الثالثة:

شعر الفتوح الإسلامية

قبل أن نخوض في غمار هذا اللون من الشعر بوصفه لوناً جديداً أضافه الإسلام، إلى الأغراض أو الموضوعات الشعرية التي أتتنا من الجاهلية، لا بد من توضيح حول أثر التاريخ ودوره في الشعر، وكذلك بوصف الإسلام أحد أبرز الأحداث الجللة التي غيرت وجه المعمورة، وأصابت تأثيراتها كل شيء من صغير وكبير:

١- قد نكون مصيبين إذا ما قلنا إن الشعر مشى مع التاريخ جنباً إلى جنب، وكأنه آلة تصوير اليوم تنقل الحدث فور وقوعه، وقد استطاع في الأغلب الأعم منه، أي من الشعر، أن يكون شعراً تاريخياً بامتياز، أو على وجه الدقة في العبارة شعر مناسبات.

٢- من الطبيعي أن يلقي الحدث بظلاله على قرائح النابهين، وكل سيعبر بطريقته، وهنا استقى الشعر والشاعر مادته من التاريخ، إذ جاء على ألسنة أناس ليسوا بشعراء حقيقة، فقط تفاعلوا مع الحدث فكتبوا، كما وجدنا ذلك عند شعراء الردة أمثال؛ مسيلمة الكذاب ومالك بن نويرة وسواهما.

٣- في ظلال الإسلام وأثره؛ يمكن القول إن الإسلام أثر تأثيراً واضحاً في الحياة الفكرية، إذ هذب أشياء كما وبرزت أشياء أخرى، فعلى سبيل المثال؛ ألغى العصبية القبيلة، لكن بفعل الصراع السياسي ولا سيما بين المدن والأقاليم وتحديداً الشام والعراق صار عندنا ما بات يعرف بمصطلح عصبية المدن أو عصبية الأقاليم، حيث شعر ينتصر للشام وآخر للعراق أيام الصراع بين سيدنا علي ومعاوية رضي الله عنهما، هذا الأمر الذي سيكون ممهداً لشيء في الأدب الأموي سيعرف باسم التجاه السياسي في الشعر.

٤- من الناحية الفنية ووفق التزام الشعر بالحدث التاريخي أو تصويره لحدث ما، ففي الأغلب الأعم سيميل الشعر إلى اللين والسهولة والعفوية في النظم كما سيغلب عليه الركاكة، وكأن الرابط بينه وبين الشعر فقط هو الوزن والقافية، فعلى سبيل المثال يقول مسيلمة الكذاب يهجو خالد بن الوليد في حروب الردة:

يا بن الوليد أنت عندي فاسقٌ
وكافرٌ بربّه منافق

وفي الناحية الفنية أيضاً يمكن أن يترتب:

١) تناول موضوعات قديمة جاءت من الجاهلية مثل الهجاء.

٢) تداخل الموضوعات في المقطوعة الواحدة.

٣) تراوحت المعاني بين جاهلية وإسلامية.

من هذا الفهم ومن هذا التوضيح يمكن أن ندخل إلى الحدث التاريخي والشعر، لنقف عند شعر الفتوح على وجه الخصوص، كمثال واضح على هذا:

شعر الفتوح الإسلامية:

١ ـ ماذا يعني هذا اللون من الشعر؟

هو الشعر الذي أنتجته قرائح الفاتحين الإسلاميين أثناء حروبهم أي أثناء توجهاتهم إلى البلدان وضمها إلى سلطة الدولة الإسلامية، فهو ممثل للشعر الإسلامي الجديد الذي انفكّ عن دائرة الشعر القديم أو كاد، وأبرز الملاحظات حول هذا الشعر؛ أنّه لم يكن بمستوى واحد، فاختلفت غزارته من منطقة إلى أخرى بسبب طبيعة الجيوش الفاتحة وميولها إلى الشعر، أو عدمه، إلّا أنه يعد وثيقة تاريخية واجتماعية ونفسية تصوّر حياة المجاهدين في حروبهم وفي أوقات راحتهم، كما يعد البذرة الأولى للشعر العربي في البلاد المفتوحة، وقد صوّر الفروسية العربية في ثوبها الإسلامي الجديد في الأمصار التي وطئتها أقدام المسلمين.

٢ ـ موضوعات شعر الفتوح:

أ ـ الأحداث والمعارك: صوّر هذا الشعر المعارك التي اندلعت آنذاك وعلى رأسها ما كان بين المسلمين والروم والفرس، وكأنه بهذا كان بمثابة آلة تصوير اليوم تنقل الأحداث فور وقوعها، فقد سجل الأخبار، ويصور دفاع المسلمين وبسالتهم في القتال، ويصف ما يدفعهم إلى الرغبة في الشهادة، ويشيد بما يملكون من قوة، فهذا عروة بن زيد الخيل يصور شجاعته في معركة نهاوند يقول:

ولما دَعَوا: يا عروة بن مُهِلهلٍ ضربتُ جموع الفرس حتى تولّت

دفعت عليهم رَجْلَتي وفوارسي وجَرّدتُ سيفي فيهمُ ثم آلتي

وكم من عدو أشوسٍ متمردٍ عليه بِخيْلي في الهياج، أظلّت

لم يغفل هذا اللون من الشعر عن تصوير احتدام المعركة واستبسال المجاهدين في القتال وأحياناً لا يفوته ذكر أسمائهم كقول بشر بن ربيعة:

تـذكرْ - هـداك الله - وقعَ ســيوفنـا ببـاب قُـدَيْسٍ والمَكَرُّ عســيرُ
عشــيــة ودَّ القومُ لو أن بعضـــهم يُعـارُ جنـاحَيْ طـائرٍ فيطـيرُ

إن الجديد في هذا الموضـوع لهذا اللون من الشـعر؛ هو مفارقته شـعر الفخر في الجاهلية وفارق حماســتها إذ لم يعد تفاخراً بالثأر والانتقام وســواهما، بل أصــبح متفاخراً بالبطولة والجهاد في سبيل الله، مما يصدر عن روح الجماعة التي ذابت فيها العصبيات.

ب- الرثاء: وهو غرض شـعري قديم منذ الجاهلية وقد انتقل إلى الإسـلام، ومن الطبيعي أن يكون ملازماً لشعر الفتوح، حيث المعارك والقتال، فلا بد من تعداد مآثر الذين استشـهدوا والبكاء عليهم وتخليد بطولاتهم، إلا أنه يختلف عن الرثاء القديم الجاهلي؛ فيما يمتلئ به من روح التسـليم بالقضـاء والامتثال لإرادة الله وحسـن تقبلها، فمن ذلك رثاء أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه الخمسة بمرض الطاعون يقول:

أمِـنَ الـمَـنـونِ وريْـبـهـا تـتـوجـعُ والـدهر ليس بمُعْتِـبٍ مَنْ يجزع
أودى بَـنـيّ وأعـقـبـونـي غُصّـــةً بـعـدَ الـرُقَـادِ وعَـبـرةً لا تُـقْـلـعُ
فَغَبَرْتُ بـعـدَهُمُ بعيش نـاصـــب وإخـال أنّـي لاحـقٌ مُسْـــتَـتْـبَـعُ
ولقـد حَرَصْـــتُ بـأن أدافع عنهم فـإذا الـمـنـيـةَ أقبلـت لا تُـدفـعُ
وإذا الـمـنـيـةُ أنشـــبـت أظـفـارهـا ألـفـيـتَ كـلّ تـمـيـمـةٍ لا تـنـفـع

يندرج تحت هذا الموضـوع لون جديد من الرثاء، ظهر بسـبب الفتوحات الإسـلامية، هو رثاء الأشـلاء المفقودة في الجهاد، إذ يرثي المجاهدون أعضـاءهم التي فقدوها في المعارك، وهو رثاء مملوء بالبسالة والشجاعة والفخر، أمام ما أفقدت العدو من أرواح، فمن ذلك صورة رائعة قالها عبد الله بن سبرة الجرشي ترسم حال يده المقطوعة التي فارقها يوم قلطاس:

يـمـنـى يـديّ غـدت مـنـي مـفـارقـةً لم أســتطعْ يوم قلطـاس لهـا تبعـا
ومـا ضـــننتُ عليهـا أنْ أصـــاحبَهـا وقد حَرَصْتُ على أن نستريح معا
وقـائـلٍ غـاب عن شـــأني وقـائلـة: هلا اجتنبتَ عدوَّ الله إذ صُـــرعا؟
مـا كـان ذلـك يوم الروع من خلقي ولو تقـارب مني الموت فـاكتنعـا
حـاسَـــيْتُـهُ الموتَ حتى اشـــتفَّ آخرَهُ فما اســتكان لما لاقى ولا جزعا
فـإن يكن أرطبون الروم قطّعهـا فقد تركت بهـا أوصـــالَـهُ قطعـا
وإن يكن أرطبون الروم قطّعهـا فـإن فيهـا بحمـد الله مُنْتَفَعَـا

بَـنـانَـتَـيْـنِ وجُـذْمـوراً أقـيـمُ بـهـا صـــدر القناة إذا ما آنســوا فزعا

وإنه فمن كل ما سبق نلاحظ أن شعر الرثاء في الفتوح اختلف عن شعر الرثاء الجاهلي التقليدي، بما شاع فيه من آثار التعاليم الدينية ومظاهر الإيمان بالموت والاستبشار بالجنة، فضلاً عن هذا اللون الجديد الذي يبكي فيه المسلمون أشلاءهم بكاء شديداً، يظهرون فيه الاستكانة لما فقدوا في سبيل الله، هذا ويلف الرثاء بلونيه التقليدي والمستحدث إطار إسلامي بإشارات واضحة حيث الجنة والثواب والأجر ليبرأ من المرارة الجاهلية.

ج - شعر الحنين: إن هذا اللون من الشعر جاء نتيجة لبعد الفاتحين عن ديارهم وأهليهم، والمقصود به التعبير عن أشواق الشاعر ومواجعه وشكواه لبعده عن دياره، فقد تأجج الشوق في صدر أحد الفاتحين وتعاظم حنينه فقال:

حـنـيـنـاً إلـى أرض كـأنّ تـرابَـهـا إذا أمطرتْ عودٌ ومســكٌ وعنبرُ

أحن إلى أرض الحجـاز وحـاجتي خيامٌ بنجدٍ دونها الطرفُ يَقْصُـرُ

إنَّ هذا الشـعر بهذا الشـكل كأنّه بدأ يحل محل المقدمة الطللية، إذ تنسـكب فيه أعماق المشاعر، ليمتد إلى الغزل العذري بعد استقرار المجتمع الإسلامي، ولعل من أبرز الأفكار المهمة في هذا الموضوع لقاء الحنين والغزل، كما في شعر ورد بن الورد الذي يصور قلبه وهو يرافق العائدين إلى أرض الوطن:

أمغتربـاً أصـبحـت في رامَهُرْمُزٍ؟ ألا كـلُّ كـعـبـيٍّ هنـاك غـريـب

إذا راح ركـبٌ مُصْـعِـدون فقلبُـه مع المُصـعدين الرائحين جنيب

وإن القَلِيـبَ الفرد من أيمنِ الحمى إلـيَّ وإن لـم آتـه لـحـبـيـب

ولا خير في الـدنيـا إذا لم تزر بهـا حبيبـاً ولم يطرب إليـك حبيـب

إن الملاحظة الأسـاسـية تتعلق بلغة هذا الشـعر إذ تكثر فيه المفردات الدالة على حال الفاتحين، في البلاد الجديدة، كالبكاء والفراق والشوق وسوى ذلك مما يمكن أن يكون رموزاً تميز هذا الشعر عن سواه.

د - شعر الشكوى من عمال الدولة: جاء هذا اللون من الشعر تلبية لمتطلبات الواقع، ولا سيما عندما اتسعت الدولة الإسلامية وأصبحت تدر موارد ضخمة، وبدأ الاقتصاد يؤثر في السياسية بوضوح، وهنا فعندما يتولى ضعاف النفوس السلطة يمدون أيديهم إلى بيت مال المسلمين، فحينئذٍ تعلو أصوات الغيورين على حال المجتمع، ويكتبون رسائل غايتها الشكوى

إلى الخليفة، أو أولي الأمر، ما يكشف عن خبايا المجتمع آنذاك، والمثال على هذه الرسائل، ثمة رسالة من يزيد بن الصعب الكلابي إلى الخليفة افتتحها بقوله:

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة فأنت أمين الله في النهي والأمر

ه- تصوير المشاهد الجديدة: شيء طبيعي أن يعكس الشعر المشاهد التي يراها الفاتحون في البلاد الجديدة، ولا سيما انتقالهم من الصحراء في الجزيرة إلى مدن اختلفت تضاريسها واعتدل مناخها، ولعل كل ما يشاهده الفاتح سيكون مادة تصويرية لشعره، فعلى سبيل المثال: أحد الفاتحين يتغنى بريف الرّي، يقول:

رضينا بريف الرّيِ والرّيُّ بلدةٌ لها زينة في عيشها المتواتر

وكذلك ستكون مشاهد المعركة واحتدام القتال أو تفشي بعض الأمراض بين الجنود كالطاعون مادة لهذا الموضوع، على الرغم من أنه كان قليلاً قياساً إلى الشعر الذي صور معاناة الفرسان الفاتحين في تلك البلاد، لكن استطاع أن يترك أثره في البيئة وفي نفوس قائليه.

٣ - طوابع شعر الفتوح أو السمات:

لهذا اللون من الشعر طوابع ثلاثة هي:

- ❖ الطابع الديني: إن هذا الشعر كان صدر عن روح الإسلام، غذته أحاسيس ومشاعر إسلامية، وقد كتب بمعان إسلامية خالصة، والشواهد عليه كثيرة حيث إن الفاتحين كانوا قد تتيموا بالإسلام وملك عليهم أنفسهم، وصاروا على قناعة مطلقة أنهم يقفون في سبيل الله فالنابغة الجعدي يقول:

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وأبو ذؤيب الهذلي يقول:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

- ❖ الطابع الشعبي: إن هذا الشعر أتى ليعبر عن انتصارات الفاتحين، فكثرت فيه أحاديث البطولة وقصص الفرسان بالإضافة إلى أشعار يقولها قائل قد لا يكون شاعراً، أو لم يُحفظ اسمه وينسب القول إليه.

❖ الطابع الفني: يلاحظ على هذا الشعر القِصَر والإيجاز، وكذلك العفوية والبساطة، ما ينطبق على معظم الشـــعر في تلك المرحلة، لأنه كان مهتماً بإيصـــال الفكرة دونما الصياغة.

انتهت المحاضرة الثالثة

المحاضرة الرابعة:

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
والخلفاء الراشدين في المدن والبادية

أولًا ـ ملاحظات:

١ـ ما العوامل المؤثرة في الشعر في عصر صدر الإسلام؟:

ثمة عوامل أثرت إلى حدٍ كبير في ركود الشعر واضمحلاله، مثلما أثّرت في ازدهاره إذ كان لها أكبر الأثر في تأثيراتها سلبياً وإيجابياً، وهي:

- القرآن الكريم: انبهر العرب ببلاغة القرآن الكريم، «فأُخرسوا عن نظم الشعر» على حد تعبير ابن خلدون، الأمر الذي أثر فيهم سلبياً وإيجابياً على حد سواء، ما يذكّرنا بانقسام الشعراء إلى فرقاء وتحديداً الفريق الذي وقف عاجزاً عن مجاراة بلاغة القرآن وعظيم بيانه، وهنا فلعلّ الإيجابية تتجلّى في قول ابن رواحة(خلوا بني الكفار)، إذ تمكّن من محاكاة أسلوب القرآن وتضمين بعض آياته بطريقة فنّيّة بارعة، في حين تبرز السلبية عند بعض الّعراء الذين امتلأت نفوسهم بعظمة الإيمان، ولم يتمكّنوا من كبح جماح عواطفهم أمامه، فالنّابغة الجعدي على سبيل المثال يقول

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وفي الوقت نفسه يقول النّابغة وفي القصيدة ذاتها ما يحاكي أسلوب القرآن متأثّراً به إلى أبعد حدّ:

المولج الليل في النّهار وفي الليل نهاراً يفرج الظلما

الخافض الرافع السماء على أرضٍ ولم يبنِ تحتها دِعَما

ليتبدّى مثل هذا أقرب إلى النّظم منه إلى الشّعر، فقط الرابط بينهما الوزن والقافية.

- الأحداث التاريخية: مرت أحداث جسام تاريخية وسياسية، عاشها شعراء هذا العصر، كانت سلاحاً بحدين حقاً؛ فبعضهم استشعرها إيجابياً، وفريق آخر لم يتمكن من هذا البتة، فسرعان ما ظهرت سلبياتها في أشعاره.

الأمر الذي يتبدّى بوضوح في بعض شواهد شعر الفتوح والردّة، إذ يمكن القول أن الشعر والشاعر استطاعا نقل الأحداث وتصويرها ببراعة، ولم يستطيعا ذلك على حدٍ سواء، فجاءت بعض مقطوعاتهم الشعرية أقرب إلى النظم، كما الحال في قول مسليمة الكذّاب يهجو خالداً.

❖ الإسلام والشعر: عارض الإسلام أغراضاً شعرية بعينها، فألغى شيئاً وهذب أشياء وأشياء، مثلما هاجم قيماً ومبادئ انتقلت إلى الحياة الجديدة، كالعصبية القبيلة على سبيل المثال، لتحل محلها الرابطة الدينية والمساواة في المجتمع، وفي الشّعر برز أثر الإسلام الضّعيف إلى حدّ في العاطفة، (إذا امتلأت المشاعر بروح الإسلام)، الأمر الذي انعكس على فنّية الشّعر، أي (انعكس على كيفيّته لا كمّيته)، إذ إنّ الشيء الملاحظ أن كثيرين مضوا يكتبون مع أنفسهم لا مع الحدث، وإن كانت الأحداث تزوّدهم بشيء أو تفجّر عندهم طاقة شعريّة معيّنة، مثلما وجدنا أبا ذئيب في رثائه لأبنائه(أمن المنون)، ما يعبّر عن خلجات إيمانيّة.

٢- وظيفة الشعر في عصر صدر الإسلام: تغيرت النظرة إلى الشعر كما وتغيرت غاية الشعر نفسه في توجهاته إلى الحياة، وصار هدفه الأول هو الذود عن حمى المسلمين وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وغاياته الدفاع عن الدين الجديد والوقوف في وجه أعدائه، فوفقاً لهذا؛ صار الشعر سلاحاً لنشر الدعوة والتغني بانتصاراتها، بدلاً من التغنّي بانتصارات القبيلة وتخليد أمجادها ومفاخرها.

٣ - شعر الدعوة:

هو؛ (الشعر الذي قيل زمن الرسول الكريم سواءٌ كان في مكّة أم في المدينة)، فخلا فخلال ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول في مكة قبل هجرته منها (٦١٠ -٦٢٣) م، كان وضعه ووضع أصحابه متضعضعاً جداً، على الصّعد كافة، والشعر الذي عُرف (بشعر الدعوة في هذه المرحلة) كان ضئيلاً جداً لأمور منها؛

*شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم ا لكبار حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة هم من الأنصار.

*دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الوقف عن الشعر في بادئ الأمر.

*إن الإسلام هو الذي أظهر الشاعرية القرشية، ففي العصر الجاهلي لم يظهر في قريش شعراء مشهورون، لأن مكة كانت تحيا حياة هادئة بعيدة عن الصراع القبلي

الجاهلي، إلا أن هؤلاء الشعراء – أي القرشيون– راحوا يدافعون عن العقيدة الوثنية التي كانت مكة مركزها، أمثال أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعرى.

٤- بعد هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة: صارت مقراً للدفاع عن الدعوة الإسلامية، والدين الجديد، ووقف نفر من الشعراء إلى جانب النبي الكريم ينافحون عنه ويردون في وجه شعراء مكة المشركين، فدارت بين الطرفين معارك حول الإسلام اتخذت طابع المواجهة إما بالسيف وإما باللسان وإما بهما معاً، وهنا فالشعراء المشركون كانت نظرتهم إلى الشعر قَبلية، وقد حرّض الإسلام على المواجهة بين الطرفين؛ فنتاجهم الشعري كان قليل القيمة من الناحية الفنية، إلّا أنه يرسم ملامح الصراع بين المسلمين والمشركين بوصفه مادة تاريخية، أما شعراء المدينة فقد اتخذوا أساليب للرد على المشركين هي التهديد والهجاء، النقائض، مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد اختلفت أساليبهم في هذا فبعضهم اتبع الأسلوب الجاهلي وبعضهم سلك مسالك إسلامية كما يشير إلى ذلك أبو فرج في كتابه الأغاني.

٥- وفي الشعر في البادية: فلم يستطع الإسلام تقويض عالمه تقويضاً كاملاً، مما سمح ببقاء بعض الواحات الجاهلية تحيط بمدينة الشعر الإسلامية، في حين إن التجارب الأولى للتجديد في القصيدة العربية كانت بدأت على يد شعراء المدينة، إذ تداخلت الخيوط الجاهلية والإسلامية، لتنتج القصيدة الجديدة في مضمون إسلامي يتناسب والدين الجديد.

ثانيًا ـ أساليب المواجهة لدى شعراء المدينة:

١ـ **التهديد والهجاء:** إن الطرفين المتصارعين يعلمان تماماً دور هذا السلاح الفعال في المعركة، إلّا أن شعراء المدينة ينتظرون موافقة الرسول الكريم على البدء باستعماله، وفور تصريحه صلى الله عليه وسلم قائلاً: «إنّ القوم الذين نصروا النبي بأسلحتهم أحق لهم أن ينصروه بألسنتهم»، لينبري لهذا الأمر حسان بن ثابت، الذي كان أحبَّ هذا الموضوع وتمرَّس به في جاهليته، وقد وجد فيه ميداناً جديداً يخوضه، فراح يهجو رؤوس المستهزئين بالرسول الكريم، إذ هجا أبا سفيان بن الحارث فطعن بنسبه وجعله ملحقاً بآل هاشم فقال:

أبلغْ أبا سفيان أنَّ محمداً هو الغُصنُ ذو الأفنان لا الواحدُ الوَغْدُ

وما لَكَ فيهم مَحْتِدٌ يعرفونه فدونك فالْصَق مثلما لَصَقَ القُرْدُ

كما هجا حسان آخرين من رؤوس المشركين الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم أمثال، الوليد بن المغيرة وأبو لهب وابنه عتبة وسواهم، على المنوال نفسه، هذا ويتراوح أسلوب حسان في الهجاء بين التيار الجاهلي الذي يعب من المعجم والبيئة الجاهلية ومثله الأبيات السابقة، والتيار الإسلامي أو على الأصح يمزج التيارين معاً، ما نجده في قصيدته الهمزية التي يرد فيها على أبي سفيان شاعر مكة، فافتتحها بقوله:

عَفَت ذاتُ الأصابع فالجواءُ إلى عذراءَ منزلُها خلاءُ

وقال فيها من التيار الإسلامي بمعانٍ إسلامية:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوهُ ولستَ له بكفء فشرُّكما لخيركما الفداء

وبالإضافة إلى هذا كله فقد اعتمد في صنعته الهجائية على خمسة أساليب هي:

أ- التجريد من الفضائل والطعن بالمثالب.

ب- الهجاء بالصفات الجسمانية والعيوب الخلقية.

ج- الهجاء القائم على البذاءة.

د- أسلوب التفضيل.

ه- الهجاء المستمد من القيم الإسلامية.

أما كعب بن مالك فقد انصرف إلى التهديد والوعيد ولم يكثر من الهجاء، ومن ذلك فقد هدد أهل الطائف حين أجمع الرسول صلى الله عليه وسلم السير إليها بعدما فرغ من حنين، فقال:

قضينا من تِهامةَ كلّ ريبٍ وخيبرَ ثمَ أجمعنا السيوفا

نُخيَرها ولو نطقتْ لقالتْ قواطعُهنّ: دَوْساً أو ثقيفا

فلست لحاضن إنْ لم تروها بساحة داركم منّا ألوفا

ونتزعُ العروشَ ببطنِ وجٍّ وتصبح دوركم مذكم خُلوفا

فهذا الأمر ما لبث أن تطور بين الطرفين إلى معارك عرفت في الكتب بالنقائض.

٢- النقائض بين الطرفين: النقائض هي من نقضَ البناء إذا هدمَه والحبلَ إذا حلَّه وضده الإبرام، والمناقضة في القول هي أن يأتي بما يتناقض معناه، وأما في الشعر؛ فهي أن يتجه

الشـــاعر إلى آخر هاجياً أو مفتخراً بقصـــيدة، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروي، أي يجب الالتزام بوحدة الموضـوع والبناء الموسـيقي: البحر، القافية، الروي، أما المعنى فالأصـل المقابلة والاختلاف، لأن الهدف هو الشـاعر الثاني همُّه أن يفســد على الأول معانيه، إذا كانت هجاءً ردَّها عليه ويزيدها بما يعرف ويخترع، وإذا كانت فخراً يُبطلها ويُكذبه فيها، وهنا يكون تجاوز الأمر إلى الهجاء العام والفخر العام، ولا تسمى القصيدة الثانية بالنقيضة إلا إذا التزمت هذين الشرطين، في حين كانت في بداية أمرها في الجاهلية تقتصـر على شـرط واحد فقط وهو وحدة الموضـوع الفخر بالفخر والهجاء بالهجاء، ولم يشـترط البناء الموسـيقي، إلى أن اسـتكمل هذا الفن بناءه قبيل انتهاء العصـر الجاهلي.

وفي الإسلام اعتمد شعراء كل طرف هذا الفن في المواجهة ودارت بينهما حروب عنيفة تراشقوا فيها بالشعر كما بالسهام، ومن ذلك يقول عبد الله بن الزبعرى شعراً يبكي فيه قتلى المشركين في بدر:

ماذا على بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نُبَيْهاً خلفهم ومُنَبِّهاً وابنَيْ ربيعة خيرَ خصم فِئام

ويردُّ حسان بأبيات منها:

ابكِ بكَتْ عيناك ثم تبادرتْ بدمٍ يُعَلّ غرُوبُها سجّام
ماذا بكيت على الذين تتابعوا هلّا ذكرت مكارمَ الأقوام

واستجابة لمعطيات الواقع آنذاك صارت (وظيفة) أو غاية المناقضة الدفاع عن الدين وبالتالي تأثرت بالمعاني الدينية إلى جانب المعاني الجاهلية، فكثُرت الألفاظ التي تعبر عن الكفر والإيمان والحساب وغير ذلك، والمثال على هذا ما قاله عبد الله بن الزبعرى يوم الخندق:

حتى إذا وردوا المدينة وارتَدَوْا للموت كلّ مُجَرَّبٍ قَضَّابِ
شهراً وعشراً قاهرين محمداً وصحابُهُ في الحرب خيرُ صِحاب

فردَّ عليه حسان بنقيضة منها:

حتى إذا وردوا المدينة وارتجَوْا قتل النبي ومَغنمَ الأسْلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدِهم رُدُّوا بغيظِهِمُ على الأعقاب

وأخيراً في هذا الجانب تجدر الإشـارة إلى أمر مهم هو أن الشـعر المناوئ للدعوة ظل في هذه المرحلة يقوم على المعاني القبلية، وظل يدور في مجاله التقليدي من فخر ينصر أو هجاء خصم، أما الشعر الآخر المؤيد لها راح يحاول التعبير عن المعاني الإسلامية باقتضاب، لأن الارتجال والمبادهة غلبا عليه مع قليل من الجزالة وكثير من اللين والسهولة، سهولة التعبير.

انتهت المحاضرة الرابعة

المحاضرة الخامسة:

متابعة في أساليب المواجهة بين شعراء مكّة والمدينة

أولاً – من أساليب المواجهة بين الطّرفين:

٣- مدح الرسول صلى الله عليه وسلم(قصيدة المدح الجديدة): ظهرت هذه القصيدة على يد شعراء المدينة، وقد حلا لبعض الباحثين أن يسميها بقصيدة المدح الجديدة، إذ لم يعد مجال للتكسب بالمدح بل صار سلاحاً لنشر الدعوة والذود عنها والتغني بانتصاراتها، وهنا فالتجديد في هذا اللون من الشعر بدأ على يد مدرسة المدينة، ويتبدى الفرق؛ أن مدح الشعراء لم يكن يأتي إلا بمقدار اتصاله بالدين وممثليه، ما قاد إلى ارتباط الشعر الإسلامي والمديح خصوصاً بالحياة السياسية، وطبعه بطابع سياسي بارز، ليكون هذا الشعر المقدمات الأولى للشعر السياسي زمن الأمويين، (شعر الدعوة والحرب الأهلية فيما بعد) الذي استطاع بفضل الإسلام والارتباط بالدين أن يتخلص من النمطية وجمود المضمون.

ماذا عن ملامح الأغراض الشعرية في قصيدة المدح الجديدة؟

- الفخر يمتزج بالمدح في أكثر الأحيان، وهو فخر جماعي يتحدث عن الذات بمقدار ما تعبر الجماعة عنها، وهو معتدل منصف يصدر عن رابطة تنظر إلى الناس نظرة واحدة، فهو فخر إسلامي مختلف عن الجاهلي في صورته وقيمته وأهدافه، يقول كعب بن مالك:

سائل قريشاً غداةَ السفح من أُحُدٍ ماذا لقينا وما لاقوا من الهَرَب

- الهجاء (في شعر المدح في قصدية المدح الجديدة)، فهو قليل ويختلف عن الهجاء الجاهلي فهو لون من الهجاء السياسي، لا تحكمه الأهواء أو المصالح، وإنما هو محكوم بقانون العقيدة الدينية، لا يتوجه إلى العيوب الشخصية بل إلى الأمور المعنوية المستمدة من التصور الديني، وإلى الخصوم الفكريين سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، يُنظَر إليهم من موقف واحد هو موقف الدين، بعيداً عن منظومة القيم الجاهلية، وأخيراً فهو يلتحم بالفخر والمدح التحاماً عميقاً، يقول كعب بن مالك:

عصيتم رسول الله أفٍّ لدينكم وأمركم السَّيْءُ الذي كان غاوياً

- المدح (بوصفه غرضاً قائماً بذاته غرضاً في القصيدة الجديدة)، فهو يتجه إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بالدرجة الأولى ويتجه إلى جماعة من الناس قد يكون الشاعر نفسه واحداً منهم، هم أصحاب قضية واحدة يتوجه إليهم بوصفهم مؤمنين ومسلمين من مبدأ المساواة بينهم، فهو يختلف عن المدح الجاهلي إذ لم يعد فيه مجال للتكسب والعطاء، بل صار الهدف خدمة للدين وتبشيراً به، والشاعر يمدح ليس من باب الصون للقبيلة وإنما جهاد في سبيل الله، يكمل به إيمانه، فهذا حسان يقول يوم بدر مبتهجاً بالنصر غامساً مدحه بالنشوة والفرح:

مُسْتَشْعِرِي حَلَقَ الماذِيّ يَقْدُمُهُم جَلْدُ النَّحيزَة ماضٍ غيرُ رعْديد
أعني الرسولَ فإنَّ الله فضّلَه على البريَّة بالتقوى وبالجُود
وقد زعمتم بأن تَحْمُوا ذِمَارَكُمْ وماءُ بدرٍ – زعمتُم – غيرُ مورودِ

وفي حالات بعينها لا يهجر الشاعر الأسلوب الجاهلي هجراً كاملاً، كما لا يميل إلى التأمل في القيم الدينية نفسها، بل يتجه إلى تمجيد الرسول الذي يمثل هذه القيم، ولعل أهم ماهي سمات قصيدة المدح الجديدة؟

- العفوية والبساطة: الأمر الذي جاء استجابة لمعطيات الواقع وتلبية لاحتياجات عامة وخاصة نفسية أحياناً، فلم يعد مجال لتنقيح الشعر وصار الرد مطلوباً مباشراً من جهة ثانية، فمن هذا القبيل قول حسان:

والله ربي لا نفارق ماجداً عفّ الخليقةِ سيّد الأجداد

- التخفف من المقدمات: إن هذا الشعر يتخفف من المقدمات على اختلافها الغزلية أو الأطلال أو أي لون آخر، كما أنه لم يلتزم بمنهج القصيدة الجاهلية من قطعٍ لصحراء بناقته أو ينطلق خلف حيوان الصحراء لكنه يشرع بموضوع المدح مباشرة، كما غابت عنه الموضوعات البدوية العريقة، فاقتصرت هذه القصائد على المقطوعات في أبيات معدودة، وأحياناً لا تزيد على عشرين بيتاً.

ثانياً – قصيدة المدح المحافظة:

في مدح الرسول بقيت الإشارة إلى صورة أخيرة في هذا الجانب وهي؛ القصيدة المحافظة، أي القصيدة التي أتى أصحابها من البادية يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامهم، فهذا الشعر يعد جاهلياً في معانيه وأساليبه، فهم لم يتعمقوا بالدين بعد، أو بمعنى

أدق مضى شعراء البادية المخضرمون يواصلون تقاليد الأجيال السابقة في التزام القيود الفنية للقصيدة الجاهلية من تصريع ووزن وقافية وروي ومقدمة ورحلة ومدح، وهنا يعد كعب بن زهير شاعر البادية الكبير رأس الشعراء المحافظين وزعيمهم في فن بناء قصيدة المدح المحافظة، فهو يكشف عن خبرة ومهارة في بناء هذه القصيدة، إذ يتناول الموروث الجاهلي تناولاً بارعاً، ويضيف إليه من روحه فيخرج في صورة جديدة تمثلت أكثر ما تمثلت في قصيدته (بانت سعاد)، التي تعد درة القصائد في مدح الرسول الكريم والاعتذار إليه، القصيدة هذه نالت شهرة واسعة وحظيت بعناية فائقة ومكانة عظيمة في نفوس المسلمين، كما نالت العناية من حيث الدراسات والترجمة فترجمت إلى عدة لغات وشرحت عدة مرات كما يقول كارل بروكلمان، ويكفيها وصاحبها تشريفاً وتعظيماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان خلع بردته وألقاها على كعب وهو ينشد، فلذا سميت هذه القصيدة بالبردة، يفتتحها كعب بقوله:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ متيمٌ إثرَها لم يفد مكبولُ

فالذي يتتبع القصيدة يجد أنها تجري على النمط القديم، حيث التزام التقاليد الكبرى للقصيدة الجاهلية، ففيها مقدمة غزلية ثم أتى على حديث الناقة، والرحلة، وإذا ما فرغ من هذا سار إلى المدح والاعتذار، وهو يحرص حرصاً شديداً على هذه التقاليد، ومما قاله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لمّا أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

يترتب على هذا المدح أمور منها:

أ- العودة إلى التراث والاصطفاء منه ذلك من حيث الألفاظ الجزلة والتراكيب المترابطة أو المعاني التي تليق بشخص النبي بوصفه الممدوح صلى الله عليه وسلم.

ب- استغلال طاقة المادة التراثية على نطاق واسع فجرى في بناء القصيدة على السنن الجاهلية.

ج- الإضافة إلى المادة التراثية وإعادة صنعها من جديد ما يتجلى في الصورة؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم سيف وهو من سيوف الله، وكأنه رمز للعدالة والحق .

د- المدح للرسول يدور في دائرتين، واحدة تتصل به مباشرة، وأخرى تتصل بقريش، وكأنه مدحه مرتين مدحاً عاماً في قبيلته وخاصاً لشخصه الكريم صلى الله عليه وسلم، أما غزله فهو غزل حسي ومعنوي معاً.

ه- إن افتتاح القصيدة بكلمة دلالية هي (بانت) يرشح لقراءة على مستويين: ظاهر ومضمر، فبانت من الأضداد في اللغة فهي تعني ظهرت كما تعني غربت وبعدت.

ثالثاً ـ شعر الاعتذار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:

جاء هذا اللون من الشعر تلبية لمتطلبات الواقع، إذ جاء على ألسنة الشعراء الذين أساؤوا للرسول في بادئ الأمر، وعلى رأسهم شعراء مكة، فبعد فتحها ودخول الناس في الدين الإسلامي تحول هؤلاء إلى مدافعين عن الدعوة يمجدون الدين، وبدأت الأصوات تعلو منهم معتذرين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مما فرط منهم في حقه، ويحاولون نقض ما فعلوه من إساءة إلى الدين الجديد، فعبد الله بن الزبعرى يقول معتذراً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:

يا رسولَ المَليكِ إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وأبو سفيان بن الحارث يأسى في أشعاره على ما فرط بحق الله ورسوله يقول:

لعمرك إني يوم أحملُ رايةً لتغلب خيلُ اللّات خيل محمد

كما أن القبائل العربية بعد فتح مكة كانت تأتي تعلن إسلامها تقدم اعتذاراً إلى الرسول؛ إلا أن هذا الشعر – أي شعر الوفود – لا يختلف عن الشعر الجاهلي لأنهم كانوا على جاهليتهم حتى وقت قريب، إلى أن جاءت وفودهم تعلن إسلامها في العام التاسع للهجرة عام الوفود، ومن ذلك ما قاله الزبرقان بن بدر بين يدي الرسول:

نحن الكرامُ فلا حَيٌّ يعادلنا منّا الملوك وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ

فمن المطلع نلاحظ أن الشاعر لم يكن يستطع أن يتخلص من الموروث الجاهلي بالفخر بقومه وكرمهم، ولم يتطرق في مطلعه إلى الرسول ولا إلى الدين الإسلامي، في حين بعض الشعراء مزجوا هذا بذاك كقول مالك بن نمط:

ذكرتُ رسول الله في فَحْمةِ الدجى ونحنُ بأعلى رَحْرحان وصَلْدَد

فبهذا الشكل تحول الشعراء جميعاً إلى مسلمين يعملون من أجل نشر الدين الجديد بما فيهم شعراء البادية أيضاً، لينتهي بهذا الشكل الصراع بين الشعراء كل الشعراء وتذوب المدرستان في مدرسة واحدة بعد فتح مكة.

انتهت المحاضرة الخامسة

المحاضرة السادسة:

حول فنيّة الشعر الإسلامي قياساً إلى الجاهلي

فهل فاقت القصيدة الإسلامية الجاهلية أو قَصُرَت عنها؟

أولًا – مواقف نقدية:

أثار هذه القضية ابن سلّام في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، وخلاصة رأيه أن مجيء الإسلام وانشغال العرب بالجهاد جعلهم ينصرفون عن رواية الشعر ولهاهم عنه، ويسير مساره الأصمعي فيقول: (الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف)، فهذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره، كما أن العلامة ابن خلدون الذي جاء في وقت متأخر نسبياً قياساً إلى سابقيه قال في مقدمته: (انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام، بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه، فأُخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى دَيدنهم منه).

وهنا فيستفاد من كلام ابن خلدون أن العرب قد كفوا عن قول الشعر لسببين، أولهما: انشغالهم بما هو أهم وأحق بالعناية من الشعر، وهو نشر رسالة الإسلام ونصرة نبيها صلى الله عليه وسلم. وثانيهما: اندهاشهم أمام بلاغة القرآن وروعته، وسحر أسلوبه وإعجاز نظمه، فوصفه الوليد بن المغيرة بقوله: (والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمُغدِق وإن أعلاه لمُثمِر وإنه ليَعلو ولا يُعلى عليه).

ولكن بالمقابل، يقول د. شوقي ضيف: (ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لا مع الأحداث بل مع أنفسهم، وقبائلهم، مستضيئين إلى حدّ كبير بالإسلام وهديه الكريم، فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر، وهذا طبيعي؛ لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلّت عقدة ألسنتهم، وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم، فلما أتمّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلّوا يصطنعونه وينظمونه، واقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل: الأغاني والطبري وسيرة ابن هشام، وكتب الصحابة مثل: الإصابة والاستيعاب، فتجد الشعر يسيل على كلّ لسان، واقرأ المفضليات والأصمعيات فتجد المفضّل الضّبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة لمخضرمين، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم

لكثيرين منهم، وسلك ابن سلّام في كتابه (طبقات فحول الشعراء) طائفة من مجيديهم البارعين، ليترتب على هذا الكلام خلاصة رأي وهي؛ أن الشعر ظلّ مزدهراً في صدر الإسلام، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظنّ ذلك ابن خلدون في مقدمته).

ثانيًا ـ مرجحات الرأي الأول ـ أي رأي ابن خلدون-:

نعم، ثمة أمور منطقية تساعد على قبول وجهة نظر ابن خلدون وترجحها، من ذلك:

١ـ الحديث عن حال الشعر في مكة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم منها.

٢ـ الحديث عن الفريق الثالث من الشعراء الذين استصغروا قول الشعر أمام عظمة القرآن الكريم، ما أدّى إلى خسارة المحافل الأدبية كبار الفحول المخضرمين.

٣ـ الحديث عن الفوارق بين الشعر المؤيّد للدعوة الإسلامية والمناوِئ لها، بما اتسمَ كلّ منه من سمات.

٤ـ التأثير في فنيّة الشعر في صدر الإسلام في كيفيته لا كميته، بمعنى أنّ الناس استسهلوا قول الشعر، فكثر عدد الشعراء من الصحابة، والظنّ أنّ كثيراً من هؤلاء لم يكونوا شعراء بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنّما هم جماعة من المؤمنين ملأ الإسلام قلوبهم فقالوا في تمجيده أبياتاً ومقطعات قصيرة قليلة الحظ من الجمال في أغلب الأحيان.

٥ـ إنّ المدّة الزمنية للعصر الإسلامي قصيرة قياساً إلى الجاهلي والأموي، جعلته على المحك، وما جرى فيه من أحداث كتبت شعراً، أمر جعل ذلك الشعر ينحدر رتبة عن قيمته الفنية وجماله الأخّاذ والمؤثر، كما يتبين جلياً في شعر المرتدين على سبيل المثال، فلذا ثمّة من الباحثين من يسلِّم بتراجع شعر صدر الإسلام، وهو في نظرهم دون الشعر الجاهلي حظاً من جمال الصورة وصفاء التعبير.

ثالثًا ـ مرجحات الرأي الثاني ـأي رأي د. شوقي ضيف-:

وأيضاً هنا فثمّة أمور تساعد على قبول وجهة نظر د. شوقي ضيف، وترجحها، فمن ذلك:

١ـ إنّ الضعف الذي يُلاحظ على الشعر الإسلامي كان قد بدأ قبيل الإسلام، وذلك بانقضاء عصر الفحول، الذين أسهموا في تأصيل كثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية، وفي التمكين بلغة عربية تعلو على جميع اللهجات، وقادرة على التعبير عن مقومات الحياة، (شعراء المعلقات على سبيل المثال).

٢- إنّ رأي ابن خلدون لم ينطبق على المشـــركين، لأنهم لم يُشـــغلوا بالدعوة، كما أن جمهور القبائل بدأت تعلن إسلامها بعد فتح مكة في العام ٨هـــ، وتقدم شعراءها وخطباءها، ويرد أيضاً بأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم سمع الشعر وأثاب عليه.

٣- وضـوح أثر الإسـلام الإيجابي في الشـعر في ألفاظه وأسـاليبه وصـوره بالإضـافة إلى معانيه ومضـامينه ما كان استقاه من أعظم بيان وهو القرآن الكريم بالإضـافة إلى وجود النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحبذ البيان وحسن الصياغة ويحفز على ذلك.

٤- بعض الباحثين يرى أن الشـــعر ازدهر حيث اســـتخدم للدفاع عن الدين، لمدح رجاله متأثراً بأسلوب القرآن الكريم وبلاغة الرسول الكريم وفصاحته التي لا مثيل لها.

وأخيراً، في خلاصة الأمر في هذا الجانب من الصعب استصدار حكم قاطع ونهائي لأنّ لكلّ فريق رأيه وما يسوغه وما يرجحه.

*　　*　　*

خطوات تحليل نص من الشعر:

أولاً- ما هو التحليل؟ ماذا يعني تحليل نص؟

هذا الأمر يعني قلب النص الأدبي من شعر إلى نثر، بالإشارة إلى فهم المتلقي مهما كانت رتبته العلمية، لأنه قد ينتبه لأمور لا يقصـــدها المبدع نفســـه تجدر الإشـــارة إليها والتركيز عليها، وذلك؛ حيث استيعاب النص المدروس من كل جوانبه من الشكل والمضمون والعاطفة وسوى ذلك.

ثانياً- ما الأمور التي تساعد على التحليل الصحيح؟

١- القراءة حول المبدع: * ما يســـاعد على الاقتراب من شـــخصـــيته الفكرية، * معرفة أســـلوبه وطريقته، * قد يُكتَشَـــف شـــيء حول النص غامض يســـاعد على فهم أكثر، ما يقود للوقوف عند مفاصل أساسية أو يحل أموراً عالقة، ويعطي تفاسير منطقية، فعلى سبيل المثال؛ حينما نقف عند لحظة الوداع بين ابن زيدون وحبيبته ولَّادَة نفهم سر جمال قصيدته المشهورة بالنونية.

٢- القراءة حول النص نفسه: في هذا لا بد من معرفة زمانه، مكانه، البيئة التي أنتج فيها، تبيان أثر تلك البيئة، بالإضـــافة إلى معرفة فيما إذا كان ثمة كتابات حوله أو شـــروح ســـابقة، فنحن حينما نقف عند قراءة للامية كعب (بانت ســـعاد) لا يمكننا أن نتجاهل أكثر من ثلاثين شـــرحاً لها، وكذلك إذا وقفنا عند رائية علي بن الجهم (عيون المها) تجب الإشـــارة إلى أثر البيئة فيها.

٣- قراءة النص المراد تحليله ثلاث مرات:

الأولى: قراءة ســـريعة: وهنا لابدّ من تســـجيل رأي حتى لو كان بســـيطاً أو خاطئاً، لأنه حكماً سيتبدل قبل إعلان النتيجة، وهنا يجب ترك النص الأدبي والانصراف إلى القراءة حوله ولملمة المعلومات.

الثانية: القراءة اللغوية والأسلوبية: وعبرها يتم فهم أشياء وأشياء، تكشفها اللغة، وفيها يتم الانتباه إلى المعجم، والأساليب النحوية من شرط وتوكيد، وتبيان سبب مثل هذا، وسوى ذلك، كما يترتب الوقوف عند؛ لغة النص من عصريتها أو مخالفتها لزمانها، فعلى سبيل المثال في تحليل نص من الأدب في عصر صدر الإسلام لا بد من الإشارة إلى أثر الإسلام الواضح في لغة النص، وذلك من خلال الوقوف عند أثره في الألفاظ والتراكيب والأسلوب والصورة.

الثالثة: القراءة العميقة: ومنها تكون نقطة البداية، من المفترض أن يكون دارس النص قد بدأ المســـك بالخيوط المعقدة، في هذه القراءة يجب الانتباه إليها من خلالها وفي ثناياها، كأن يكون الانتباه إلى: * أثر البيئة المنتجة للنص. * تبيان ثقافة العصـــر وأثرها إن وجد. * انعكاس ثقافة الشـــاعر أو الأديب على العمل الأدبي، فأهل اللغة يكثرون من المصـــطلحات اللغوية وأهل المنطق يكثرون من المصطلحات المنطقية، وهكذا، وفيها يجب التركيز على:

- دلالة الضـــمائر – الكلمات المفتاحية – بؤرة الارتكاز في كلمة أو عبارة – الرموز – الكلمات المكررة.

ثالثاً- كيف نبدأ بالتحليل:

١- مقدمة عجلى تتضمن لمحة خاطفة عن الشاعر وعصره ونصه، وهنا يفضل التركيز على الأمور التي تساعد على فهم النص دون استطراد، كأن يكون أثر البيئة واضحاً مثلاً.

٢- مسك النص من نقطة واضحة مع الانتباه الجيد إلى أنه إذا تم المسك بنقطة ما يجب الإكمال فيها إلى النهاية، حتى يكون الانتقال إلى ثانية وثالثة، كأن نبدأ بالغرض أو المناسبة أو الفكرة العامة، وذلك بحسب الفهم.

٣- الحديث عن الأشياء اللافتة للنظر في النص، أو عن الأشياء الجديدة برأي الدارس أو الناقد، كأن تكون المقدمة الطللية ممهداً للحديث مثلاً أو أن تكون الكلمة المفتاحية بوصفها بؤرة الارتكاز مجالاً لهذا، كما الحال في كلمة (بانت) في قصيدة (بانت سعاد).

٤- الوقوف عند المضمون، وفيه:

- شرح الأبيات باقتضاب واختصار مع التركيز على المهم والأساسي

– ذكر الأفكار وفق فهم الدارس للنص

– الوقوف عند سمات المعاني ودلالتها؛ كأن تكون غير ملائمة للغرض أي سلبية، أو إيجابية ملائمة ومناسبة، مستقاة من زمان وبيئة النص، أو جاء بها مبدعها من بيئة بعيدة.

٥- الأسلوب: وفيه يذكر؛ كل ما يتعلق بعلم البيان والمعاني والبديع، أي الألفاظ والتراكيب والصورة، وسمات كل منها على حدة، والحديث عن لغة النص.

٦- دراسة العاطفة والمشاعر والأحاسيس.

٧- دراسة موسيقا النص من وزن وقافية وروي.

٨- نتيجة نهائية وتقديم رأي إن أمكن.

ملاحظات عامة:

١- هل هذه الخطوات ملزمة والترتيب فيها ضروري؟ لا، هي غير ذلك، فكل دارس أو ناقد من حقه أن يتبع الطريق التي يراها مناسبة.

٢- يجب الانتباه إلى دلالات بعض الأساليب كالتوكيد والشرط وسواهما.

٣- يجب أن يركز على شيء من كل شيء، ويذكر كل شيء في شيء، فعلى سبيل المثال؛ في قصيدة (بانت سعاد)، يشار إلى المشاهد التي سلكها الشاعر بعد مقدمته الغزلية كالصحراء وقطعها، وحيوانها، لكن يركز على مدح الرسول الكريم والاعتذار إليه فيها.

٤- لا بد من مراعاة الجوانب المتعلقة بالنص؛ فنص أنتج في ظلال الإسلام تجدر الإشارة إلى أثره الواضح فيه.

٥- في نص في صدر الإسلام يركز على:

أ- أثر الإسلام في الغرض، الألفاظ، التراكيب، الصورة، وغير ذلك.

ب- يجب الانتباه إلى أمور:

- إذا كان أثر الإسلام واضحاً فإنّه يشار إلى ذلك، كما الحال في همزية حسان في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويرد فيها على أبي سفيان.

- إذا كان المزج بين التيارين الإسلامي والجاهلي، فإنه يشار إلى ذلك، كما الحال أيضاً في الهمزية نفسها.

- إذا كان أثر البيئة الجاهلية واضحاً، فإنّه يشار أيضاً، كما الحال في قصيدة (بانت سعاد).

- إذا كان أثر القرآن الكريم واضحاً، فإنّه يركز على هذا، لأنه أسمى بيان وأعظم بلاغة، وفيه وأمامه تذوب كل الأساليب، كما الحال في أبيات عبد الله بن رواحة (خلوا بني الكفار).

- إذا كان تأثير الإسلام في العاطفة منعكساً على الأسلوب فقد يكون الأثر ضعيفاً، كما لاحظنا ذلك في بعض الشواهد لبعض الشعراء الذين امتلأ شعرهم بنَفَسٍ إسلامي كالنابغة الجعدي في بعض أبياته.

انتهت المحاضرة السادسة

المحاضرة السابعة:

النثر الأدبي في صدر الإسلام

أولاً- ما هو النثر بشكل عام؟

النثر رمي الشيء متفرقاً، مثل نثر الجوز والسكر، ونثر الحب إذا بذر، وفي اللغة التوزيع على غير قياس أو نظام، أو بمعنى؛ النثر هو كلام لم ينظم على أوزان ولم يتقيد بقوافٍ، ويأتي على ثلاثة أضرب وهي:

١- كلام عادي: وهو الذي يعتمد اللغة المحكية الدارجة أو العاميّة السائدة بين الناس.

٢- النثر العلمي: وهو الذي يعتمده العلماء والباحثون لتدوين علومهم وشروحهم، ويعتمد على بعض الخصائص التي تبعده عن العامية المبتذلة، ولكن لغته تكون محايدة تقوم على الصرامة، وهي جافة ثقيلة على المتذوق.

٣- النثر الأدبي: وهو الذي يقوم على لغة مغايرة للنوعين السابقين، فيكوّن تشكيلاً جمالياً مادته اللغة، ويسعى إلى تحقيق غايات فردية معرفية وجمالية بهدف التعبير عن المنتج والتأثير في المتلقي.

ثانياً – ما هو الفرق بين الشعر والنثر؟

يمكن تلخيص أوجه التباين والخلاف لكل منهما على الشكل:

١- النثر: يتميز بقدرته على نقل الأفكار المحددة، وهو طريق المبدع نحو الإقناع، يتسم بالوضوح، وهو مرسل بمعنى؛ لا تحد من توارده عوامل يضبطها الوزن، وتقيدها القافية، لغته وصفية تقريرية تستهدف غاية محددة، تلتقي في أثناء إنتاجه: الوظيفتان المعرفية الإبلاغية والجمالية البلاغية.

٢- الشعر: يتميز بوزن وقافية، وظيفته الأولى جمالية فنية بلاغية، يقوم على الشعور والانفعال، يخاطب الوجدان والمشاعر، وقد تكون له وظيفة معرفية، ذلك إذا عبر عن رؤيته الخاصة للحياة والكون.

ثالثًا - ما هو تعريف النثر الأدبي؟

(هو تشكيل لغوي خاص، يهدف إلى تحقيق غايات فكرية وجمالية، انفعالية وإبلاغية، يعبر عن المبدع وآرائه وأفكاره، ليؤثر في المتلقي، ويعتمد الأسلوب المتحرر من قواعد

الوزن والقافية، ويمتلك القدرة على إيصـــال الغايات المعرفية إلى الفرد والجماعة على حد سواء).

رابعًا ـ ما هو الفرق بين الخطاب الشفوي والخطاب الكتابي؟

إن النثر يحتاج إلى وسيلة اتصال تنقله إلى المتلقي، وتكون واسطته المشافهة المباشرة أو المدونة المكتوبة، ويترتب على كل من الواسطتين:

ـ الخطاب الشـــفوي: يتجه إلى جمهور عام، متعدد الثقافات والاتجاهات، يوجه المبدع له الكلام مباشرة من وجه إلى وجه، يوفر للخطيب الاستفادة من ثراء الصوت والحركة، الكلمة المنطوقة فيه تغدو جزءاً من حاضر المتكلم، كما تجعل المخاطب في موقع حضور لاستدراك الكلمات، وإدراك ما يتجاوزها إلى ما يمتلكه من ســمات صــوتية مثل النبر والوقف والتنغيم ومميزات حركية مرادفة للعبارات مثل الإشـــارة والإيماء وتعابير الوجه، ما يؤثر أكثر في المتلقي، إلا أن هذه العوامل المؤثرة تفقد استمراريتها إذا لم تقترن بالكتابة، ويضـعف تأثيرها عند إطالة العبارات والجمل، وتفقد القدرة على التأثير نهائياً إن لم تكن أفكار المبدع واضــحة في ذهنه مرتبة ترتيباً منطقياً.

ـ الخطاب الكتابي: يتوجه إلى النخبة القارئة (عالمة متعلمة) ما يحدد المســتوى اللغوي والأســلوبي والبلاغي للخطاب، أي هو معتمد على البنية اللغوية في نقل المعنى وإيصـــاله، وكل ما يجمله ويحسـنه بما يتصـل بالمعاني والعبارات، وما يميزه من النثر الفني قدرته على الثبات وسهولة الاستعادة وإعادة القراءة لمرات عدة.

خامسًا ــ ما هو أثر الإسلام في النثر الأدبي؟

عَرف نثر صــدر الإســلام ما انتهى إليه النثر الجاهلي، ومن ذلك؛ (منافرات وقصــص تاريخية وأمثال ووصـايا وخطب وحكم وسـجع الكهان والرسـائل)، وقد غابت عن الأخيرة ـ أي الرســائل ـ قيمتها الفنية التي تجعلها تندرج تحت باب النثر الفني، فالإســلام هنا وقف موقف (المنقح والمصــحح، موقف الناقد) الذي يدفع ببعض الأنواع صــعوداً ويلغي أنواعاً أخرى في ضوء منظومة الإيمان والمعرفة الإسلاميتين:

١ـ ألغى ســجع الكهان؛ لأن إدراك الغيب ومعرفة مصــير الإنســان والبشــرية والكون تقتصر دونه عقول البشر، ولا يدركه إلا الله تعالى.

٢- المنافرات والمفاخرات: كانت صـــدى للعصـــبية القبلية، وما تنطوي عليه من فخر وتشـوف، والإسـلام جاء للمسـاواة بين الناس جميعاً، وليجعل تقوى الله والخشـية من عذابه والعمل من أجل الآخرة مقياساً أساسياً يحدد مكانة الإنسان.

٣- الأمثال: خف اهتمام الناس بها، وذلك عندما تقوت الروابط الاجتماعية في الإســـلام، واضمحلت الشخصية الفردية التي كانت تمكِّن الإنسان من مراقبة أطوار نفسه، إذ انصرف الناس إلى الإقبال على ما ضمَّه القرآن من أمثال وأخبار عن الأمم السابقة، إلى أن بدأت الأمة بتدوين تراثها من جديد عن طريق عودة الاهتمام بالأمثال منذ بداية العصر الأموي.

٤- تحوّل الاهتمام بالحكم إلى انصـراف المسلمين نحو العناية بالحديث النبوي الشـريف، والعناية بأقوال الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم، فقلَّ الاهتمام بالحكم الجاهلية أمام ما تيسر للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم من ضروب الفصاحة والبلاغة.

٥- الوصـايا: اختلفت بين الجاهلية والإسـلام، ففي الجاهلية كانت تختص بعدد من البلغاء والحكماء، ولا سـيما عند حضـور أحدهم الوفاة، كما تسـربت إلى بعض النسـوة اللاتي كنَّ يوصـــين بناتهن قبيل الزواج، أما في الإســـلام فقد احتلت الوصـــية مكانة كبيرة في الحياة، فاتســـعت مقاصـــدها وميدان تأثيراتها، إذ أفاد منها الخلفاء وأخذوا يوجهونها إلى من يتولى الخلافة بعدهم، كما أوصوا قادة الجند والولاة بطرائق معاملة الجيش للرعية.

٦- الخطابة: احتلت مكانة ســامية عند الجاهليين، وكثيراً ما زاحم الخطيب الشـــاعر في منزلته، وكانت أداتهم في الوفادة على الملوك، وأما في الإســـلام، فقد ازدهرت وارتفعت مكانتها، بفعل عوامل يمكن إجمالها على النحو:

١- برزت وسيلة لدعوة العرب إلى الدين الإسلامي الجديد، وغدت وسيلة التشريع ورسم الحدود لدولة الإسلام بعد اتساع رقعته.

٢- صـارت وسـيلة اتصـال بين الراعي والرعية على مختلف المسـتويات من (خليفة أو والي أو قائد جيش)، مهمتها سياسية (كشرح الخليفة لسياسة الدولة والتواصل مع رعيته، أو بث الحماس في الجيش أيام الحروب)، وكذلك إيضـاح موقف سياسـي للفئات المتخاصـمة في المجتمع، ما ظهر أثناء الفتنة.

٣- اهتمام العرب بالفصـــاحة والبلاغة في القول والخطاب، فهم كما يقال عنهم: (أُمَّة لَسَن).

٤- تطورت وازدهرت بتأثير العامل الديني، إذ إن بعض الصلوات لا تصح إلا بالخطبة كصلاة الجمعة والعيدين.

بعد هذا كله، فهل كان النثر في عصر الإسلام مزدهراً ؟ الجواب: نعم، يشير بعض الباحثين إلى ازدهار النثر قياساً إلى الشعر ويرجعون ذلك إلى عوامل هي:

١- نزول القرآن بصورة نثرية وكذلك لفظ الحديث النبوي الشريف.

٢- إبعاد طائفة من الشعراء عن قول الشعر أمام إعجاز القرآن الكريم وبلاغته.

٣- انتشار الدعوة الإسلامية وما اشتملت عليه من مبادئ وقيم.

٤- اتساع رقعة دولة المسلمين وترامي أطرافها، فصارت بحاجة إلى وسيلة من هذا النوع، للتواصل مع أجزائها الواسعة.

سادسًا- ما هي فنون الأدب النثرية التي سندرسها في هذا العصر؟

الفنون هي: الخطابة، الوصايا، الرسائل، ويوجد عندنا العهود قد لا نتطرق إليها.

* * *

كيف ندرس نصاً نثرياً دراسة تحليلية؟

كنا فهمنا ما هو التحليل ؟ ماذا يعني؟ وأشرنا إلى الأمور التي تساعد على المسك بخيوط أي نص من أجل هذا، أما عن الطريقة، فيفضل اتباع:

١- مقدمة: وتشتمل على؛ التعريف بكاتب النص، بيئته، زمانه، مناسبة النص.

٢- البناء أو بناء النص، وفيه:

- التقسيم إلى أفكار رئيسة – التقسيم إلى مقدمة وعرض وخاتمة إذا كان واضحاً – الوقوف عند المعنى المراد أي الشرح باقتضاب – سمات المعاني.

٣- الأسلوب: ويشتمل على؛ الألفاظ، التراكيب، سمات كل واحدة، سمات اللغة.

٤- الناحية الفنية: وتشتمل على:

الإشارة إلى علم البديع (جناس، طباق)، الإشارة إلى علم البيان (تشبيه، استعارة، كناية).

٥- نتيجة نهائية ورأي شخصي إن أمكن.

كما وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن مثل هذه الخطوات يمكن أن تنطبق على النصوص النثرية عموماً من خطابة ووصايا ورسائل وغير ذلك، في حين لا يوجد مشكلة في

عدم اتباعها أو عدم الترتيب وفقها، إلا أنها تســـاعد إلى حد كبير في تنظيم تحليل أي نص ودراسته من جوانبه كافة.

في ضــوء تحليل نص؛ بقيت الإشــارة إلى بعض الســمات التي يمكن لها أن تنطبق على معظم النصوص في هذا العصر، على الشكل:

١ـ سمات المعاني وهي:

- جديدة: أي لم تكن مطروقة من قبل، مستمدة من منظومة فكرية إسلامية، لم يعرفها العرب قبل البعثة.
- صحيحة: لا مجال للشك فيها.
- إيجابية: أي هدفها التوجيه إلى الخير.
- واضــحة مفهومة: إذا كانت نابعة من عقلية منظمة ارتبطت بالســياق على نحو ما، وأدت هدفاً ورسالة.

٢ـ سمات الألفاظ وهي:

- سهلة: يسيرة ليس فيها غريب أو حوشي.
- جديدة: إذا كانت معروفة من قبل لكن أخذت بفضــل العصــر الجديد دلالات معينة كالمؤمن والكافر وسواهما.
- مستمدة من مفهوم إسلامي أو تقليدي.

٣ـ سمات التراكيب:

- مؤسســة على بناء الألفاظ: أي إذا كانت الألفاظ جديدة فالتراكيب جديدة، وإذا كانت الألفاظ واضحة وسهلة فهذا ينعكس على التراكيب.
- الإشارة إلى التراكيب النحوية ودلالتها كالشرط والاستفهام والأمر وسوى ذلك.
- الإشارة إلى طولها وقصرها والسبب.
- الإشارة إلى الإنشاء والخبر والغرض منهما.

٤ـ سمات اللغة:

- لغة وسطى يتقبلها الجميع: أي متناسبة تناسباً بين الألفاظ والمعاني.

- الإشـارة إلى التضـمين والاقتباس: فالتضـمين يعني الإتيان بمعنى الآية الكريمة، أما الاقتباس فيعني الأخذ المباشر من القرآن الكريم.

- تبيان أثر المفردات في التراكيب.

انتهت المحاضرة السابعة

المحاضرة الثامنة:

فن الخطابة

كنا أشرنا إلى ازدهار هذا الفن ازدهاراً ملحوظاً في صدر الإسلام، ولعل الأمر يرجع في تطوره وازدهاره إلى الحاجة الدينية حيث إن الخطابة رافقت المسلمين منذ بداية البعثة النبوية، وكانت الوسيلة الأساسية لدعوة الناس إلى الإسلام، وقد صار لها وظيفة اجتماعية وسياسية بعد الهجرة، حيث تنظيم المجتمع الإسلامي في المدينة، ووُظِّفَت في استثارة حماسة الجند وكذلك في بيان الخليفة منهجه في الحكم لرعيته.

تنقسم الخطابة إلى خمسة موضوعات وهي:

خطب الوعظ الديني، خطب الوفادات خطب التشريع، خطب السياسة وبيان منهج الحكم، خطب الحث على الجهاد.

وهنا إن هذا التقسيم ليس صارماً، بمعنى؛ أن ليس هناك حدود فاصلة بين كل موضوع، وغالباً ما تتداخل في الخطبة الواحدة الموضوعات، ولكن هذا التقسيم لتسهيل الدراسة، كما أن تحليل نص الخطبة يدفع إلى الخروج عن السياق في بعض الأحيان.

وتسهيلاً لعرض هذا الموضوع وإغنائه بما يفيد سنكتفي بدراسة موضوعَين فقط وتكون الإشارة إلى بقية الموضوعات باقتضاب:

أولاً- خطب الوعظ الديني:

١ - **الوعظ الديني**: هو النصح والتذكير بالعواقب والإرشاد إلى الخير، وعند الخليل هو التذكير بالخير، وعند الراغب الأصفهاني هو الزجر المقترن بالتخويف، والخلاصة أن الوعظ يقوم على الترغيب كما يقوم على الترهيب، والمثال الواضح على هذا الموضوع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، التي ألقاها في أول جمعة صلَّاها بالمدينة في قباء، بعد الهجرة، يقول صلى الله عليه وسلم:

«الحمدُ للهِ أَحْمدُه وأستعينُه، وأسْتَغفرُهُ وأستَهْدِيهِ وأُوْمنُ به ولا أَكْفُرُه، وأعادي مَنْ يكفُرُه، وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهَ وَحْدَهُ لا شَرَيكَ له، وأنَّ مُحمَّداً عَبدهُ وَرسُولَهُ، أرْسَلَهُ بِالهُدَى والنُّور والموعظَةِ على فَتْرةٍ من الرسُل، وقِلَة من العلم، وضَلَالةٍ من النَّاس، وانقِطَاعٍ من الزَّمانِ،

وقُرْبٍ من الأجَلِ، مَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُـوْلَهُ فَقد رَشَـدَ، ومَن يَعْصِـهِمَا فقد غَوَى، وفرَّط وضـلَّ ضلالاً بعيداً.

وأوْصِـيكُم بتَقْوى اللهِ، فاحذَرُوا ما حَذَّركم الله من نَفْسـهِ، ولا أفضـلَ من ذلك نصـيحة، ولا أفضـلَ مِنْ ذلك ذكرى، وإنَّ تقوى الله لِمَنْ عَمِلَ بِهِ على وَجَلٍ وَمَخافةٍ من ربِّه، عونُ صـدْق على ما تَبْغُون من أمْرِ الآخِرة، ومَنْ يُصلحِ الذي بينه وبين الله من أمْره في السِّرّ والعلانية لا يَنْوِي بِذَلكَ إلَّا وَجْهَ اللهِ، يَكُنْ له ذِكراً في عاجِل أمرِه، وَذُخْراً فيما بعد الموت حين يَفْتَقرُ المرءُ إلى ما قدَّم، وما كان سـوى ذلك يودُّ لو أنّ بينهُ وبينهُ أمداً بعيداً، وَيُحذركم اللهُ نَفسَـهُ والله رؤوفٌ بالعباد، والذي صَدَقَ قَوْلَهُ، وأنْجَزَ وَعْدَه لا خُلْفَ لذلك، فإنَّه يقولُ عزّ وجلَّ: {مَا يُبَدّلُ القَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق:٢٩].

فَاتَّقُوا اللهَ في عَاجِلِ أَمْرِكُم وآجِلِهِ في السِّـرّ والعلانيةِ، فإنه من يتقِّ اللهَ يُكَفِّر عَنهُ سَـيئاتِهِ، وَيُعْظِمُ لَهُ أجْراً، وَمَن يَتَّقِ الله فقد فازَ فوزاً عظيماً، وإنَّ تقوى اللهِ يُوقِي مَقْتَهُ، ويُوقي عقوبَتهُ، ويوقي سُخْطَه، وإنَّ تقوى الله يُبَيّضُ الوجوه وَيُرضي الرَّبَّ، ويَرَفعُ الدَّرجةَ.

خُذُوا بحظِّكم ولا تُفَرِّطُوا في جَنبِ اللهِ، قد عَلَّمَكُم كِتَابَهُ، ونَهَجَ لكم سَـبيلَه، ليَعْلَمَ الذين صَـدَقُوا ويَعْلَمَ الكاذبين، فأَحْسِـنوا كما أحْسَـنَ الله إليكُم وَعادُوا أعْداءَهُ، وَجَاهِدُوا في لله حَقَّ جِهَادِهِ هو اجْتَباكمْ وَسَـمَّاكُم المسـلِمين، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلِيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [الأنفال: ٤٢]، وَلا قُوَّةَ إلّا بالله، فأكثروا ذكْرَ اللهِ، واعْمَلُوا لِمَا بَعدَ اليومِ، فإنَّهُ مَنْ يُصـلِحْ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الله يَكْفِهِ الله ما بَينهُ وبَيْنَ النَّاس، ذلك بأنَّ اللهَ يَقْضـي عَلى النَّاسِ، ولا يَقْضُـونَ عَلَيْهِ، يَمْلِكُ مِن النَّاس ولا يَمْلكُوْن مِنْهُ، والله أَكْبَرُ ولا قوَّة إلا باللهِ العَظيم».

٢ ـ في دراسة الخطبة والتعليق عليها:

أ – مقدمة للدراسـة: وفيها التعريف بالخطيب الذي هو الرسـول الكريم سـيد البلغاء والفصـحاء، وخطبته هذه موجهة إلى جمهور المسلمين، من مهاجرين وأنصـار، والمكان هو المدينة المنورة والزمان أول جمعة للرسول الكريم يصـلي فيها، ما يقتضـي أن تكون الأمور في هذا النص هي أمور تأسيسية مبنية على أسس صحيحة سليمة.

ب- في بناء الخطبة: انقسمت إلى مقدمة وعرض وخاتمة، ولعل طولها فيه إشـارة نفسية مريحة لحال الخطيب الذي هو الرسـول الكريم صـلى الله عليه وسـلم، فبينما كان المسـلمون

مطاردين في مكة صاروا في المدينة مكرمين يشعرون بشيء من الراحة والطمأنينة، وإلا لم يستطع الرسول الكريم أن يطيل ويكثر من التوجيهات والمواعظ.

ج- في العاطفة: شيء طبيعي أن تكون صادقة وشفافة وواضحة، فهي نابعة من القلب، وتخاطب العقل والوجدان والمشاعر على السواء، فالرسول الكريم يريد أن تصل كلمته إلى قلوب الجميع على مستوى واحد، فقد طرق فكرة واضحة هي؛ رسم علاقة صحيحة بين العبد وربه من خلال الترغيب والترهيب.

د- في الأسلوب: فالتراكيب جاءت واضحة لا غموض فيها، لأنها جاءت مؤسسة على وضوح الألفاظ، ومما يميز التراكيب؛ استخدام أسلوب الشرط مثل؛ (من يتقِ الله يلقَ)، والتوكيد مثل (إنَّا)، ولعل فيه تأسيس غاية تعليمية في النفس.

وأما ألفاظها فجاءت سهلة ليس فيها غريب، جديدة بمعنى أنها معروفة من قبل لكن أخذت دلالات معرفية جديدة مستمدة من الدين الإسلامي، من مثل؛ (التقوى، الموعظة، الجهاد، الصلاة)، واضحة لأنها نابعة من ذهنية منظمة، فالفكرة التي يريد أن يوصلها الرسول الكريم كانت في ذهنه واضحة ما انعكس على كل هذا بوضوح.

ه- فيما يتعلق بالناحية الفنية: فهذا الجانب واضح في الخطبة، حيث وجود البديع كالطباق والجناس والمقابلة، من مثل؛ (السر والعلانية، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، يوقي مقته ويوقي عقوبته)، بالإضافة إلى هذا كله فثمة صفات ميزت هذا النص من سواه، وهي:

أ- وحدة الموضوع: أي اعتمدت موضوعاً واحداً بخلاف ما كانت عليه في الجاهلية.

ب- ترجيح البديع: وذلك يرجع إلى التعويض عن مظاهر السجع الذي كان في الجاهلية، وفيه إشارة إلى أن النص مطبوع أتى دون تكلف.

ج- تجديد المعاني: أي توظيفها بطريقة جديدة ذات طابع إسلامي.

د- استخدام لغة وسطى مقتبسة من القرآن .

ه- غلبة بعض العبارات القصيرة الموجزة التي تحمل دلالات عميقة ومؤثرة، من الممكن أن تنفصل عن جسم الخطبة لتسير على الألسنة وتكون بمثابة قانون أو حكمة تنظم حياة كل إنسان، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس».

ثانياً – خطب الوفادات:

١ - والمقصـــود بها خطب الوفود التي كانت أتت إلى النبي الكريم في عام ســـمي عام الوفود، وذلك كان العام التاســـع للهجرة بعد غزوة تبوك، إذ كان يتقدم كل وفد يفد على النبي الكريم خطيبه يلقي خطبة يعلن فيها إســـلامه، وبالمقابل يقوم خطيب من المســـلمين يرد عليه مفاخرته مهنئاً له بالإسـلام، ومنها أيضـاً وفادة القبائل على الخلفاء الراشـدين بغرض عرض أوضـــاعهم وأحوالهم، أو لتأييد بيعة أو رأي ســـياســـي، يقوم فيه الخليفة، فعلى هذا، خطب الوفادات هي قسمان؛ الوفود التي أتت إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم والوفود التي أتت إلى أحد الخلفاء الراشدين، وعلى هذا أيضاً فخطب الوفادات هي؛ صورة متطورة عن خطب المفـاخرات والمنـافرات الجـاهليـة، النوع الـذي كـان موجوداً بكثرة آنـذاك، وكـان يقوم على العصـــبية القبلية، ومع قدوم الإســـلام لم يتخلَ العرب بصـــورة نهائية عن مفاخراتهم، ولم ينقطعوا عن الاعتزاز بأحسـابهم وأنسـابهم، لكن تطور الأمر من الاعتزاز بعصـبية قبلية إلى الاعتزاز بعصبية جماعية هي العصبية التي جاء بها الإسلام، الذي صار ميداناً لمفاخراتهم، والمثال على هذا النوع من الخطابة؛ خطبة عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي الذي يقول فيها :

«الحمدُ لله الذي له علينا الفضـــلُ، وهو أهْلُه، الذي جَعَلَنا ملوكاً ووهبَ لنا أموالاً عِظاماً نفعل فيها المعروفَ، وجَعلَنا أعزَّ أهلِ المَشْـــرِق، وأكثرَه عدداً وأيســـرَهُ عُدَّة فَمَن مِثْلُنا في الناس، ألســـناً برؤوس النّاس وأُولي فَضْـــلِهِم؟ فَمَن يُفاخِرْ فَلْيعُدّد مثل ما عَدَدْنا، وإنَّا لو نشـــاء لأكثرنا الكلام، ولكن نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نُعْرَف بذلك. وأقول هذا لتأتونا بِمِثْلِ قَوْلِنا، وأمْرٍ أفضلَ من أمرنا».

فردّ عليه ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري حسبما أشار النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«الحمد لله الذي: السـمواتُ والأرضُ خَلْقُه، قضـى فيهنّ أمْرَه، وَوَسِـعَ كرسـيَّهُ علْمُه، ولم يكن شـــيءٌ قطُّ إلَّا من فَضْـــلِه، ثُمَّ كان من قُدْرَتِه أنْ جَعَلنا ملوكاً، واصـــطفى من خير خَلْقِه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصْدقهم حديثاً، وأفْضلُهم حَسَباً، فأنزل عليه كتابَه، وائتمَنَهُ على خَلْقِه فكان خِيرَةَ اللهِ من العالمين، ثمّ دعا النّاس إلى الإيمانِ، فآمن برسول الله صـلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوي رَحِمه، أكرمُ النَّاس أنسـاباً، وأحْسَـنُ النّاس وُجُوهاً، وَخَيْرُ الناس

فِعالاً،، ثم كان أولُ الخلق استجابةً لِلهِ – حين دعاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم – نحن، فنحن أنصارُ اللهِ، ووزراءُ رسوله، نقاتلُ الناس حتى يؤمنوا».

٢ ـ في التعليق على النصين:

أ- نص التميمي:

- يفتتح خطبته بمطلع تقليدي (الحمد لله)، ثم يعلل سبب حمده أي إنعام الله عليه وعلى قومه، ويختم بقوله: (أقول هذا لتأتونا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا)، وكأنها إشارة صريحة منه جرى فيها على عادة العرب، وكأنه يريد من يرد عليه من الطرف المقابل على صورة المفاخرات الجاهلية.
- قد يفهم من البداية أنها خطبة إسلامية، وهو الأعرابي الذي أسلم فقال: (الحمد لله)، إلا أن المتمعن بالنص يجد عدم تأثره التأثر الواضح بالمعاني الإسلامية وفي ألفاظه وتراكيبه، وكذلك خرج عن السنة الإسلامية حيث العصبية القبلية ما زالت تهيمن على عواطفه ومشاعره، ربما هذا لأنه أعرابي وكونه حديث عهد بالإسلام.

- فمن سمات المعاني أنها:

* تقليدية نمطية تقوم على القيم الأخلاقية، ولم يأتِ بجديد زائد على خطب المفاخرات.

* صادقة لا يوجد فيها كذب على قومه أو مزايدة توهم ما ليس فيهم من عز ومجد.

* سلبية لأنها تحض على العصبية ما يوضح الفرق بين المعاني الإسلامية والجاهلية، فالإسلام جاء لينهي مثل هذا ولا يريد تكريسه البتة.

ومن أهم سمات التراكيب أنها قصيرة لأنه لا يوجد فيها غاية تعليمية حتى تطول .

ب- نص ثابت بن قيس:

١- رصد معاني عطارد ورد عليها على سنن المفاخرات فوسع حمد الله وأثنى عليه ثم انتقل ليفتخر بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، النبي المرسل واختتم بالترغيب والترهيب، وكأنه يتخذ موقفاً تعليمياً تربوياً يريد أن يشجع الناس على الدخول إلى الإسلام أكثر، بوصفه خطيباً للرسول مهمته الأولى تقتضي ذلك.

٢- من سمات المعاني؛ أنها جديدة: مستمدة من البيئة الإسلامية، صحيحة: لا شك فيها، واضحة ومفهومة؛ لا غرابة فيها.

ومن أهم سمات الألفاظ أنها سهلة واضحة وهي إسلامية مستمدة من معجم إسلامي جديد، مثل قوله (وأنزل عليه كتابه)، وأما تراكيبه فهي قصيرة وكأنه يريد أن تحفظ كسابقتها.

٣ - في تعليق على النصين الشبه والاختلاف:

أ- الخطبتان تقوم على المفاخرة، الأولى بالعصبية القبلية، والثانية بالعصبية الإسلامية الجماعية، حيث الفخر بالرسول الكريم وفخر الأنصار مرة ثانية بأنهم احتضنوا المسلمين وبينهم الرسول الكريم.

ب- معاني الأولى وأسلوبها جاهلي نمطي فيه سلبية واضحة، الثانية إسلامية إيجابية صحيحة.

ج- غابت الصورة من الخطبتين لأن المراد إفهام المعاني وإفهام المفاخر للآخر، وكأنه لا يوجد متسع من الوقت لمثل هذا.

د- الخطبتان مالتا إلى القصر، وكأن الهدف هو الحفظ وأن تبقى مثل هذه الخطب عالقة في الأذهان إلى وقت أطول.

ه- الخطبتان جاءتا ارتجالاً دون تحضير مسبق ولا سيما خطبة ثابت في حين قد يكون الخطيب الآخر قد حضر ماذا سيقول.

ثالثاً- خطب السياسة وبيان منهج الحكم:

وهي الخطب التي اهتمت بإيضاح آراء المسلمين في جوانب السياسة، كمن سيخلف النبي الكريم بعد وفاته، والإفصاح عن السياسات التي سيتبعها الخلفاء بعد بيعة المسلمين لهم، وهنا تجدر الإشارة إلى أن موضوع الوعظ الديني قد اختلط بالسياسة.

رابعاً- خُطَب التشريع وشرح أحكام الدّين:

وهي الخطب التي تقوم على شرح آيات من القرآن الكريم التي تعنى بتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، وإيضاح قضايا جزئية لم ترد فيه، بهدف قيام علاقات ترسخ النظام العام، وتعزز سلطة الدولة الإسلامية الناشئة، وكذلك النهوض بأعباء شروح النبي صلى الله عليه وسلم من خلال خطبه وأحاديثه التي مثلت المعين الأساس الذي أعان الخلفاء وأمدهم بمادة أهلتهم لإكمال المهمة كما أعان فيما بعد الأئمة من الصحابة والتابعين على إتمام هذه المهمة الجليلة، ولعل المثال الأوضح على هذا النموذج خطبة النبي الكريم في حجة الوداع،

تلك الخطبة التي تعد دستور حياة أراد النبي الكريم أن يرسم عبرها خطوط المجتمع العريضة على المستويات كافة.

خامساً- خطب الحث على الجهاد:

إن هذا النوع من الخطب هو خاص بالمعارك، إذ كانت تلقى الخطبة أيام الحروب وفي ساحات القتال على وجه الخصوص، وذلك لتأجيج حماسة المقاتلين، وتشجيعهم أكثر على حب الشهادة في سبيل الله، وهي في الوقت نفسه تكشف عن أطياف واسعة من مباعث الجهاد وتأسيس لفرضه، وتشير إلى تفريع واسع لثواب المجاهد في الحياة الدنيا والآخرة.

انتهت المحاضرة الثامنة

المحاضرة التاسعة:

متابعة في أجناس النّثر الأدبيّ

أولًا ـ سمات الخطابة في عصر صدر الإسلام:

للخطابة في هذا العصر سمات عامة أو خصائص اتسمت بها وذلك على الشكل:

١- تنوع موضوعات الخطابة بتنوع دواعيها، بما يتناسب وطبيعة العصر آنذاك، فنجد الوعظ الديني والتشريع ونجد الخطب السياسية والحث على الجهاد وغير ذلك بحسب ما يقتضيه المقام.

٢- قام البناء العام على مقدمة وعرض وخاتمة، إلا أن هذا الأمر ليس مطرداً، أي ليس كل الخطب تمضي على هذا النحو، ولعل العامل الفاصل والفاعل في ذلك هو الوقت والحال الذي يفرض على الخطيب كخطب الجهاد التي لم تزد على سطرين في بعض الأحيان، وفي أحيان بعينها تطول الخطبة لأن الأمر أو الموقف يقتضي ذلك كخطب التشريع والسياسة، لأن الموقف تعليمي.

٣- سارت الخطابة على تقليد يقوم على افتتاحها بحمد الله والثناء عليه والتمجيد لذاته العلّة، وأحياناً تقترن بالدعاء للجماعة ما يتضح في خطب الوعظ الديني والمناسبات الدينية كالأعياد وصلاة الجمعة.

٤- ظهور روح الإسلام الواضحة فيها حيث الصدق والواقعية والوضوح الشديد والعاطفة هي عاطفة دينية صادقة، بالإضافة إلى البعد عن التناقض، بالإضافة إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف.

٥- وفيما يتعلق بأسلوبها والنواحي الفنية: فقد ظهر المعجم اللفظي الجديد الذي يتناسب وروح الإسلام، ومالت الألفاظ إلى السهولة، في حين غلب على التراكيب التراوح بين الطول والقصر واستغلال طاقتها القصوى، بمعنى خروجها عن غايتها وغرضها مثل النحو إلى غايات وأغراض أخرى في ميادين البلاغة، بالإضافة إلى هذا كله؛ فقد وظف الخطيب لغة وسطى بعيدة عن التكلف والتصنع، وعوض عن الجنوح في الخيال بتزيين كلامه بالمحسنات البديعية كالطباق والجناس وسواهما، واستمد صوره الضئيلة مما كان يقع تحت يديه أو أحاسيسه أو من القرآن الكريم.

ثانياً – معلومات إضافية عن الخطابة

١- اعتمدت الدعوة الإســـلامية على الخطابة في نشـــرها والدفاع عنها، ولم تعتمد على الشعر، وقد جعلها الإسلام ضمن الشعائر الدينية التعبدية، فارتقت مظهراً وجوهراً.

٢- ذكر ابن خلدون أن كلام العرب الذين أدركوا الإســـلام فاق كلام الجاهليين قبله من شعر ونثر، وأن ذلك قد أتى أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من منظوم الجاهليين ومنثورهم، ذلك لسماعهم الطبقة العالية من القرآن والحديث النّبويّ الذي عجز البشر عن الإتيان بمثله.

٣- أكسب الإسلام الخطابة مزايا وخصالاً لم تكن فيها من قبل، حيث صارت تفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، والتشهد، ثم الاستشهاد بآيات من القرآن وكلام النبي الكريم، وفي مضمونها صار الالتزام بآداب الإسلام، مما يعني إهمال بعض الأغراض التي كانت من قبل، والترفع عنها من مثل التفاخر والتنافر وسواهما، ففي هذا يقول الجاحظ: «إن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين لهم إحسان ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد بالبتراء، ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي الكريم بالشوهاء».

٤- افترقت الخطبة الإســـلامية عن الجاهلية بأمور يمكن التمييز بينهما بالمقارنة على الشكل:

- الجاهلية كانت: تبتدأ باللات أو العزى والبعض يفتتحها بقوله باســـمك اللهم. في الإسلام صارت تبتدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتختم بالدعاء والاستغفار.

- الجاهلية كانت تميل للإيجاز مع قلة المترادفات، في الإســـلام صـــارت تتفاوت بين الإيجاز والاقتضاب، والإطالة بحسب المقام.

- في الجاهلية كانت الجمل قصيرة مع قلة الترابط بينها والحرص على السجع، سجع الكهان، في الإسلام صارت الجمل طويلة نوعاً ما أو تراوحت بين الطول والقصر، وزاد الترابط بينها، وهجر سجع الكهان.

- في الجاهلية كانت معانيها ساذجة واضحة مستمدة من البيئة، في الإسلام صارت معانيها واضحة، عميقة، مستمدة من القرآن.

- في الجاهلية كانت تستخدم في إثارة العصبية الجاهلية والتحريض على القتال والأخذ بالثأر، بسبب تأثير الوثنية فيها تأثيراً واضحاً وكبيراً، في الإسلام صارت تستخدم للحث على الجهاد والدعوة إلى التوحيد ونشر مكارم الأخلاق، إذ هذبت أغراضها وسمت أهدافها بعد تأثير الديانة الإسلامية فيها.

ثالثًا ـ فن الوصايا:

١ ـ ما تعريف هذا الفن؟

هو فن من فنون النثر الأدبي ولد في الجاهلية وانتقل عبر العصور، يجمع فيه الموصي ما استخلصه من تجارب حياته، يجسده في كلمات مضيفاً إلى ذلك أعماق مودته، ليعرف بهذا الشكل كلون من التراث الأدبي يتجاوز حدود الموصى له إلى فضاء مفتوح، فهو في الأدب قول يصدر عن حكيم مجرب يوجه إلى من يحب، لينتفع به، إلا أن هذا الأمر ليس شرطاً حتمياً في الموصي، فأحياناً تأتي الوصية من إنسان غير معروف كما وجدنا في الجاهلية بعض الأمهات اللاتي يوصين بناتهن قبيل الزواج.

٢ـ ما هي أغراض الوصايا؟

للوصايا أغراض يمكن إجمالها:

أ- الوصايا التقليدية ذات الأغراض الشخصية: ومثالها الوصايا التي يقدمها الآباء لأبنائهم، إذا ما شعروا بدنو أجلهم، ينظمون فيها العلاقة بين الأبناء أنفسهم أو بين الأسرة والأسر المجاورة، ومن ذلك ما كان يحصل بين زعماء القبائل في الجاهلية.

ب- الوصايا السياسية ذات الأغراض السياسية: وهي الوصايا التي تنقل خبرات سياسية من الموصي إلى الموصى له، أو بمعنى أدق يدخل فيها الموصي كل ما عنده من خبرات سياسية إلى من سيأتي بعده، وعلى هذا فالمعاني الواردة فيها أبرزها معان سياسية ومثالها ما كان بين الخلفاء الراشدين كما الحال بين أبي بكر الصديق يوصي عمر بن الخطاب، وأيضاً وصية عمر للخليفة بعده.

ج- الوصايا العسكرية ذات الأغراض العسكرية: وهي الوصايا التي تحمل طابع الإرشاد في الأمور العسكرية، وأيام الحروب، ومن ذلك ما كان يفعله قادة الجند أو الخلفاء في توجيهاتهم لجنودهم، ومن أمثلتها وصية أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان أحد قادة الجند الذين سيرهم إلى الشام فاتحين.

٣ـ ما حال الوصية في عصر صدر الإسلام؟

إن هذا الفن تطور وازدهر كثيراً في ظلال الإسلام، ذلك لروحه -أي لروح الإسلام- الذي يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، فمن ذلك كل ما جاء من نصائح وإرشادات فيها خير للبشرية جمعاء، على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضاً ما كان ورد في القرآن الكريم من نهي واضح لمنكر وفعل واضح لمعروف أو خير، فمن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم التي يمكن أن تمثل هذا الجانب كما يرى بعض الباحثين: «اغتنم خمساً قبل خمس » وقوله أيضاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وقوله تعالى: {فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب}.

٤ـ ما الفرق بين الوصية والخطابة؟

- الوصية تميل إلى الهدوء والعقلانية، الخطابة تميل إلى التهويل والإثارة العاطفية.

- الوصـــية تكون محصـــورة بين فردين غالباً، الخطابة تكون أمام الجمهور للإقناع والإمتاع.

٥ ـ نماذج من الوصايا في صدر الإسلام:

أـ الوصية السياسية: من وصية أبي بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب:

«إني مُسْـتخلفُك بعدي، وَمُوصـيْكَ بتقوى الله، إنّ لِلّه عملاً بالليل لا يقبَلُه بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبَلُه بالليل، وإنه لا تُقْبَلُ نافِلةٌ حتى تُؤدّى الفريضـــةُ، فإنَّما ثَقُلتْ موازينُ من ثَقُلَت موازينُه يوم القيامة باتباعهم الحقَّ في الدّنيا وثِقله عليهم....».

بـ الوصية العسكرية: من وصية أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان في فتحه لبلاد الشام:

«يا يزيدُ! إني أوصـــيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوفِ منه، وإذا لقيتَ العدو فأظفَرَكم الله بهم، فلا تَغْلُلْ ولا تُمَثّل، ولا تغدرْ ولا تجبُنْ، ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقعره...».

جـ الوصـية التقليدية: من وصـية قيس بن عاصـم المنقري يوصـي بنيه «يا بَنيّ خُذوا عني، فلا أحدَ أصـلح لكم مني، إذا دَفَنْتُموني فانصـرفوا إلى رحالكم، فَسَـودوا أكبركُم، فإنَّ القومَ إذا سوَّدوا أكبرَهُم خَلَفُوا أباهم، وإذا سوَّدوا أصغَرَهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم، وإيّاكم ومَعْصيةَ الله، وقطيعةَ الرَّحِمَ وتَمَسَّكوا بطاعةِ أمرائكم، فإنَّهم من رفعوا ارتفع، وَمَنْ وَضَعوا اتَّضَعَ....».

من الممكن أن يترتب على هذه النماذج:

١- نابعة من روح إسلامية خالصة.

٢- نابعة عن عقلية منظمة واعية حريصـــة تريد أن تقدم شـــيئاً للموصـــى له ما يظهر بوضوح في:

* الجمل القصيرة الموجزة والمركزة، ذات الدلالة العميقة والكثيفة.

* انسجام الأسلوب مع الغرض أي انسجام الألفاظ والتراكيب، حيث تطول وتقصر بحسب المقام.

* أثر البيئة الإسلامية فيها، ما يبرز بوضوح في محاكاة أسلوب القرآن

* توظيف المعاني الجديدة والصحيحة التي تناسب المضمون.

٣- يقرأ دلالة واضحة في نفسية الموصي، دلالة نفسية عميقة واضحة، ما يرتسم عبر توظيف أسلوب الأمر والنهي للموصى له، إلا أن هذا الأسلوب خرج عن غرضه ووظيفته ليكون أمر المحب لمن يحب.

رابعاً - فن الرسائل:

١ – لمحة عن تطور هذا الفن:

لم يكن لفن الرســـائل دور في الحياة الأدبية في الجاهلية، على الرغم من وجوده بينهم ومعرفتهم به، وقد أرجع البعض ذلك إلى سببين هما:

أ- قلة انتشار الكتابة والتدوين بين الجاهليين.

ب- قلة الدواعي إلى هذا الفن آنذاك.

وأما بمجيء الإسلام فقد تغيرت الحال وتبدلت الأمور؛ إذ ظهرت عوامل، لم تكن معروفة من قبل أسهمت إسهاماً واضحاً بتطور هذا الفن وازدهاره:

- جاء الإسلام يحض على تعلم القراءة والكتابة، ومن أوائل الآيات التي نزلت على النبي الكريم: {اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم}.

- تشجيع النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم القراءة والكتابة، لأنه يعلم تماماً ما لأهمية هذا الأمر من ثمن نفيس لا يقدر.

- صار صلى الله عليه وسلم بحاجة لمن يكتب له القرآن، ويكتب رسائله التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل وزعماء المناطق وملوك الدول، يدعوهم بها إلى الإسلام رغبة بنشر

الدعوة الإســـلامية، (الأمر الذي لم تكن الخطابة أو الشـــعر قادرين على حمل مهمة وأداء وظيفة تقوم بها الرسالة).

- ترامي أجزاء الدولة الإسلامية بعد الفتوح، فصارت بحاجة إلى وسيلة تواصل مع أجزائها الواسعة، وهنا شجع الخلفاء على تعلم الكتابة، واتخذوا كتاباً للتواصل مع الولاة والقضاة وقادة الجند.

فبهذا الشكل نافس الكاتب الخطيب والشاعر وصار له منزلة خاصة ومكانة مرموقة يحظى بها، وقد أدت الرسالة وظيفة لم تستطع الخطابة أداءها، وقد عجز الشعر عن القيام بها.

٢- كيفية بناء الرسالة في عصر صدر الإسلام:

إن رسائل هذا العصر غالباً ما تكون على الشكل؛ تبدأ بالبسملة، ثم تعبير من قبل من، من مثل (من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، أو (من أمير المؤمنين فلان) وقد تبدأ باسم المرسل مباشرة من مثل (هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، إذا كانت موجهة إلى مسلم وجهت عبارة (سلام الله عليك)، وإذا كانت إلى غير مسلم فقد تحل عبارة (السلام على من اتبع الهدى)، ثم التحميدات من مثل؛ (وإني أحمد الله إليه) أو ما شابه، وقد يرد بعد هذا ذكر التشهد أو تحل عبارة (أما بعد).

٣- طريقة كتابة الرّسالة:

إذ لا بد من المخاطبة البليغة مع مراعاة حال الكاتب، والمكتوب إليه، ومراعاة النســـبة بينهما، ولأدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»، ويقول إبراهيم بن محمد الشيباني: «إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم، فخاطب كلاً على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته، وانتباهه وفطنته، ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلاتك، فلا يكتب لمن أصيب في ماله كما يكتب لمن فرغ باله ووفر ماله».

وأما عن كتابة الرسالة على وجه العموم فيمكن ترتيب مكوناتها على الشكل؛ البسملة، المرسل، المرسل إليه، السلام، المحتوى، الخاتمة، التاريخ، العنوان.

٤- نماذج من الرسائل في عصر صدر الإسلام:

أ- من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتّبَعَ الهدى: أما بعدُ: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَمْ، وأسْلِم يُؤتِكَ الله أجرَك مرتين، فإن تولّيتَ فإنما عليك إثْمُ الأريسيّين».

ب- من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى كسرى عظيم فَارس، سلامٌ على من اتّبَعَ الهُدى وآمَنَ بالله ورسوله، وشهدَ أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنّ محمداً عَبْدُهُ ورسولُه، أدعُوك بدعايةِ الله عزّ وجلّ، فإنّي أنا رسولُ الله إلى النّاسِ كافةً، لأُنْذرَ من كانَ حياً، ويحقَّ القولُ على الكافرين. أسْلِم تَسْلَم، فإن أَبَيْتَ فعليك إثْمُ المجوس».

ج- من رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يحثه على استكمال فتح مصر:

«أما بعدُ: فقد عجِبْتُ لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلّا لما أَحْدَثْتُمْ وأحببتم من الدّنيا ما أحبَّ عدُّوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلّا بصدق نياتِهم».

د- من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنين إلى عبد الله بن قيسٍ، سلامٌ عليك، أما بعدُ: فإنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكمةٌ وَسُنّةٌ مُتَّبعَةٌ، فافهمْ إذا أُدلي إليكَ، وانفُذْ إذا تبيَّن لك فإنّهُ لا ينفَعُ تكلّمٌ بِحَقّ لا نَفَاذَ لهُ».

<u>يترتب على هذه النماذج المختلفة أمران:</u>

- المحافظة على البناء العام للرسالة في عصر صدر الإسلام، وإذا ما كان ثمة خلل فإن السبب دواعي معينة تفرضها طبيعة الوقت، الذي كتبت فيه الرسالة، كما لاحظنا ذلك في النموذج الثالث أي رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، حيث الفترة فترة حرب ويريد منه استكمال المهمة المنوطة إليه.

- تحاكي الواقع الإسلامي شكلاً ومضموناً وعقيدة واعتقاداً، فهي نابعة من أعماق أعماق المرسل، وأحياناً المستقبل، ولا غرابة فالمرسل هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد صحابته الكرام، والمستقبل أيضاً من الصحابة أحياناً ما عدا ملوك العجم، وقد أثرت فيهم مثل هذه العبارات لرصانتها وقوتها، فبعض هذه العبارات لو سلخناها عن جسم الرسالة لصارت حكمة ومثلاً على الألسنة وهذا واضح جليّ.

انتهت المحاضرة التاسعة والأخيرة ***مع أطيب الـمُنى***